كنا بالنسبة إليهم رجس
من عالم آخر

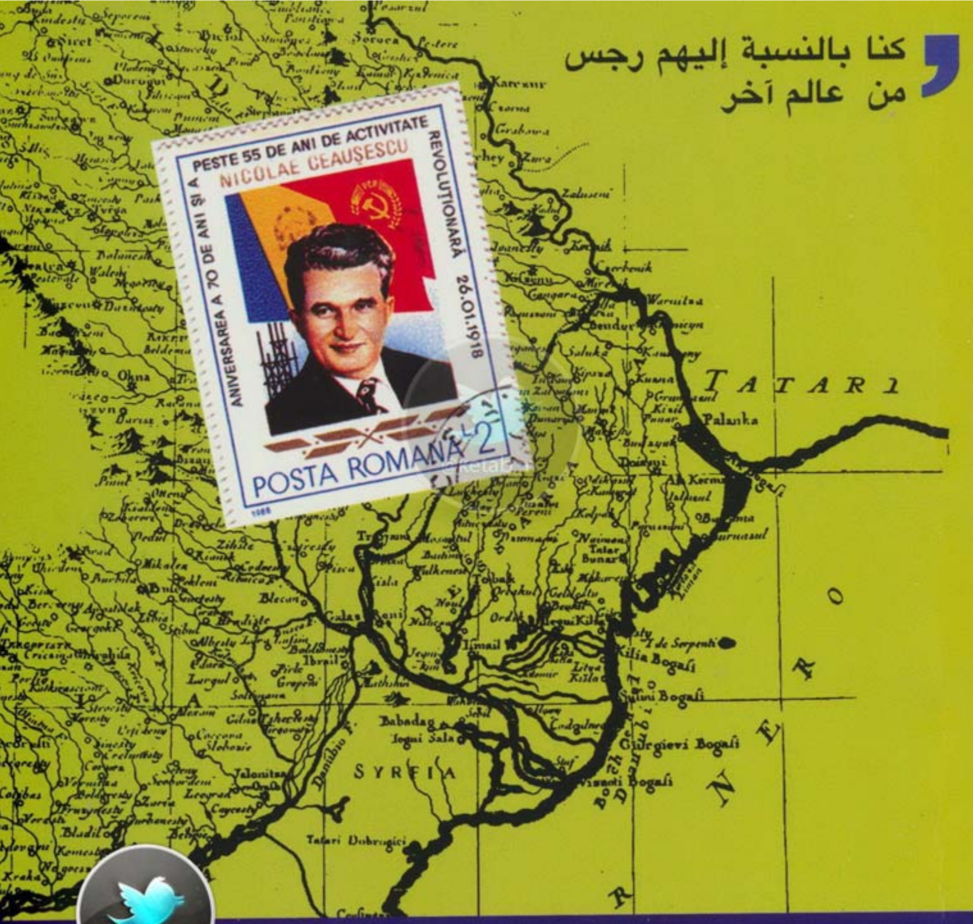

@ketab_n
Follow Me
11.5.2015

المُبعَدون

أوجنين سباهيتش

ترجمة: هبة ربيع

العربي للنشر والتوزيع

روايات مترجمة

المبعدون

"أبناء هانسن"

أوجنين سباهيتش

الكاتب من جمهورية الجبل الأسود

ترجمة: هبة ربيع

Twitter: @ketab_n

المبعدون

أوجنين سباهيتش

Twitter: @ketab_n

المبعدون

المؤلف: اوجنين سباهيتش

ترجمه: هبة ربيع

تحرير: جمال علي

الغلاف: محمد السيد

الطبعة الأولى : 2015

رقم الإيداع2014/21123

الترقيم الدولي:9-209-319-977-978

60 شارع القصر العيني - 11451 - القاهرة

ت 27921943 - 27954529 فاكس 27947566

www.alarabipublishing.com.eg

© جميع الحقوق محفوظة للناشر

© Ognjen Spahić
Originally published in English by Istros Books

Twitter: @ketab_n

تمت ترجمة هذا الكتاب بمساعدة صندوق منحة الترجمة
المقدمة من معرض الشارقة الدولي للكتاب

This book has been translated with the assistance
of the Sharjah International Book Fair Translation
Grant Fund

بطاقة فهرسة

سباهيتش، اوجنين

المبعدون : رواية من الجبل الأسود /اوجنين سباهيتش: ترجمة هبة ربيع .– القاهرة:
العربي للنشر والتوزيع 2014

- ص؛ سم. تدمك 9789773192099

- القصص اليوغسلافية أ- ربيع: هبة (مترجم) 891,923

Twitter: @ketab_n

"مع الثلوج البطيئة يهبط المجذوم"

رينيه شار، من قصيدته (برق النصر)

Twitter: @ketab_n

يقع آخر موطن أوروبي لمرضى الجذام أو مستعمرة الجذام في جنوب شرق رومانيا وسط مناظر الظلام المجذومة، والأرض الجرداء، التي عانت من مُداخن محطات توليد الكهرباء وبقايا الغابات الهائلة، منذ فترة طويلة اختفت كتل الأرض الخصبة التي استدعت خطى أمراء "داقية" الثقيلة من "بوريبيستا" و"ديسيبالوس" المستعدون دومًا لإغراق الحديد في أجنحة الخيول الرومانية اللامعة، وبطون فيالق "تراجان" متينة البنية جيدة التغذية، ولاحقًا "فلاد الثالث"، المخوزق، أمير "ميرسيا" القديم، و"ستيفن العظيم" من مولدافيا، "رياضي المسيح"، ومايكل الشجاع (جميع الرسل المكرّسة لكلمة الله) الذين كانوا مثل النجوم في ليلة مظلمة نظر إليها العالم المسيحي بأمل حين أراقت السيوف العثمانية أنهارًا من الدماء الشابَّة.

على مرِّ العُصور - كما يذكر الناس - مُزِّق هذا البلد إلى أشلاء بمخالب أسود الشرّ العجوزة، وتلطخت أيديهم بدم الملايين المقهورة.

Twitter: @ketab_n

لكن لم تنس رومانيا مجد الشجعان، (يمضي تدفق الأنهار، لكن تبقى الصخور)، كما يقول المثل الروماني، ويُحكى حتى اليوم عن مآثر جحافل الأمير "فلاد" البطولية التي كرست الجزء الأخير من قوتها إلى الدفاع عن بلدها.

اعتاد "روبرت دنكان"، زميل غرفتي العزيز، قول إن التاريخ هو العين الثالثة للبشرية وهو ما يتيح لنا إدراك مصائب عصرنا السوداوي إدراكًا واضحًا، ودائمًا ما أرد عليه بالاستشهاد بقول "إيميل سيوران" الذي كتب: "لو لم يكن هناك شيء مثل السوداوية، لشوى الناس العصافيروأكلوها"، فيرد "روبرت" إنه مرعوب من مجرد التفكير في - العصافير منتوفًا ومزينًا بالنعناع والثوم، ويتوسل لي ألا أذكر الفكرة المؤلمة مرة أخرى، فأبدأ في التغريد من بين أسناني الساقطة، وأرفرف بذراعي في أنحاء الغرفة حتى ينزع "روبرت" نعاله ويرشقهم في رأسي قائلًا إنه يريد النوم، فلا أستطيع المواصلة.

أحب الوقوف في النافذة في أمسيات الصيف الجافّة، وأشعر بشظايا التاريخ الضئيلة، التي تحولت مؤخرًا فقط إلى غبار يتساقط على رأسي العارية من نسيم منطقة "الكاربات" المنعش، أو من النسيم الأدفأ الذي يهبّ باضطراد من أسفل المنحدرات الصخرية من جبال ألب "ترانسلفانيا"، أتنسّم رائحة الغابات والتُّوت. نفس الحقول الخصبة

Twitter: @ketab_n

وزهور شجيرة الليلك القزمة، والحجارة، التي جزيئات حبيباتها محشورة بين أسناني وتوخز حجاب المياه البيضاء المسدل على عيني حجاب المياه البيضاء الساد على عيني، وعندما أغمض عيني اليمنى، السليمة المليئة بالحياة، تنزل ستارة من الضباب على المناظر الطبيعية؛ ويصبح القمر قطعة علكة ممضوغة، وزميل غرفتي فأر ناعس، والأضواء البنفسجية من مصنع الأسمدة القريب مثل وميض النجوم المحتضرة، أما تمثال البرونز النصفي للملك ألكسندر جون الأول الموجود في منتصف فناء مستعمرة الجذام فيبدو في مكانه بصعوبة، فأفتح عيني اليمنى وأغلق اليسرى، افتحهما أغلقهما بالتبادل مستمتعًا برؤيتي الثنائية الخاصة للعالم.

الصفحات التالية كُتبت كما شوهدت بالعين اليمنى، وأنا بكامل قواي العقلية.

والأشخاص الذين التقيتهم وعرفتهم في طريقي (سوف تُقَدِّر أنني لا أستطيع قول أي شيء مباشر عن "بوريبيستا" أو"ديسيبالوس"، أو الملك جون)، سيوصفون بما يمليه عليَّ ضميري، أما أولئك الذين لم أقابلهم لكنهم أصبحوا بالعمد أو الصدفة جزءًا لا يُمحى من حياتي، فسوف يتحولون إلى كلمات بأفضل ما أستطيع، وسأحرص على ألَّا يشوِّه حرف مطبوع واحد جمالَ الحقيقة التامّ.

Twitter: @ketab_n

Twitter: @ketab_n

الفصل الأول

في يوم 16 أبريل 1989، استيقظت قبل الآخرين. خططت لقطف بعض براعم النرجس البرِّيّ التي تنمو بمحاذاة الجدار الجنوبي لمستعمرة الجذام. أردتها أن تزهر في غرفتي، لذا هبطت السلالم من الطابق الثاني ومعي علبة صفيح ممتلئة بالماء، في الليلة الماضية كانت العلبة ممتلئة بحلقات الأناناس التي استمتعت بها مع روبرت، وكالعادة تفلت علب الأناناس بانتظام من انتباه مسئولي الجمارك والقرويين الرومانيين الجوعى الذين يسلبون قيمة أي مواد غذائية عندما تأتي حزم المساعدة من الصليب الأحمر الدولي. وتتبقى فقط علب تلك الفاكهة الاستوائية في قعر صناديق المساعدات بسبب بعض الخرافات المتعلقة بالأغذية مثل "القهوة من جنوب أفريقيا مشعَّة" أو "التفاح النيوزيلندي ملون اصطناعيًّا".

Twitter: @ketab_n

وبينما كنت أتأمل في منحدرات الجبال الثلجية البعيدة شعرت بالسعادة وأنا أتخيل أيادي الفتيات الكاريبيات، التي كانت منذ بضعة أشهر تداعب الجلد الخشن للفاكهة التي نستمتع بقلبها الآن. وبينما نبتلع الأناناس نلعق في خيالنا راحات تلك الأيدي الرقيقة، ولست خجلًا من القول إنني كثيرًا ما انتهيت بانتصاب طفيف.

تخترق خيوط الفجر الأولى برقّة سحابة الدخان الطويلة المنبعثة من مصنع الأسمدة. من الأفضل قطف النرجس قبل شروق الشمس: بهذه الطريقة تقبض عليها وهي نائمة، مغلقة البتلات، وتستطيع تحويلها إلى مكان سرير مختلف. الماء البارد يحافظ على نضارتها لعدة أسابيع، وتتفتح كل صباح. قطفتهم بكسر سيقانهم أعلى سطح الأرض بسنتيمتر واحد، منتبهًا ألا أتلف الجذر الكبير الذي يأوي العديد من الزهور الصفراء لسنوات قادمة، من أجل المقابر التي ستضم رفات أصدقائي المجذومين.

كنا محجوزين في مستعمرة الجذام منذ عام 1981 للحدِّ من تكاليف النقل إلى محرقة الجثث في بوخارست وتجنبًا لإرسال جِرار الرَّماد للأُسر في جميع أنحاء أوروبا. لم يلق هذا التغيير أي احتجاج، كما أذكر، لأننا جميعًا مرضى بالجذام (ها أنا قد قلتها!) قضينا أيامنا هنا بسبب خوف رهبة نفس أولئك الأقارب من مرضنا القديم. هناك مشهدان مرتبطان بالجذام هما الأكثر شيوعًا في أذهان الناس: أولًا: مشاهد من فيلم بن هور لويليام وايلر،

Twitter: @ketab_n

حيث تظهر مستعمرة جذام تجوب الأرض كما لو كانت معاقبة من الإله، محكوم عليها بالاحتقار، والموت المؤلم في الكهوف وحيدة، بعيدًا عن المدينة؛ وثانيًا: الخوف من الانحراف البيولوجي الذي سمح بخطأ فادح من الطبيعة، أو ربما سمحت به الآلهة، بالتواجد في عصرنا الحديث.

كانوا يعتقدون إن لحمنا الشرس الشاحب، وزوائدنا المنتفخة على ظهورنا، وأذرعنا، ورقابنا، تحتوي على جراثيم المرض التي تنتظر فقط لأن تندفع وتنشر هذا المرض القديم بطريقة ديمقراطية. القرويون الرومانيون متبلدو البديهة، وأصحاب العقول المتعفنة بالمخاوف غير المنطقية والخرافات، يعتبروننا منبوذين من الإنسانية، وأشرارًا أيضًا، حتى إنهم يمنعون أطفالهم القبحاء من اللعب على بعد مئات الأمتار من سياج مستعمرة الجذام.

كان لدي انطباعٌ دائمٌ أن المبنى الخاصّ بنا، والمناطق الملاصقة له تبدو كمقبرة مسكونة تعجّ بالأرواح الشريرة أكثر منها كمؤسسة طبية. أعتقد أن هذا يرجع إلى ملابس الكتان الطويلة التي كنا نرتديها: حماية ضرورية من الشمس وتحديق المجذومين الآخرين من أولئك الذين لديهم عيون على الأقل.

كل مجذوم يريد معرفة كيف تشوهت أجساد الآخرين، وهو الموضوع المعتاد في حواراتهم الخاصة؛ وكأنه لعبة "اعرض وقل" لما ينقصهم ويقول ما يفتقدونه. البقعة الأكثر حساسية هي الأعضاء التناسلية الذكورية، والتي تشبه في بعض مراحل المرض جذر نبات الجنطيانا (كف الذئب) المجفف أو

Twitter: @ketab_n

أصابع رجل عجوز ملتوية وعاجزة. وتحدد صحة هذا الجزء وضع الشخص في المستعمرة ضمنيًّا.

كانت لدي الفرصة النادرة لأن يظل ذَكَري بعيدًا عن "معجزات" بكتيريا "جيرهارد أرمر هانسن" العَضَوية. طالما كنت موهوبًا بأبعاد لائقة تمامًا قبل الإصابة بالمرض، وسرعان ما كان وصولي إلى المستعمرة أشبه بوصول زعيم لما يشكله الموضوع من أهمية.

كلما حان وقت تقسيم الصدقات التي تتركها لنا الطائفة الكاثوليكية عند البوابة، نقدر كمية الحطب اللازمة أو نقسم محصول البطاطا أو الكرز إلى أجزاء عادلة، وقد دُعيت إلى الرئاسة. عادة ما يذهب كل شيء من دون أي مشاكل. إما لأنه لا توجد أية شكوى، أو لأن لا أحد لديه القدرة على الشكوى. كان الاحتجاج قاصرًا على التمتمة تحت قلنسوات الكتان أو المشاحنات الطفيفة في ممرات المبنى المظلمة. لكن في بعض الأحيان يفلت زمام الأمور، ويتطلب اتخاذ تدابير جذرية بالاتفاق مع المقيمين الآخرين. في إحدى المرات ضرب "سيون إيمينسكو" بقطعة حطب كبيرة على رأس "إيمستزلو كاسويزك"، بسبب سوء تفاهم حول حجم الطماطم التي حصلوا عليها، مما تطلب ردَّ فعل سريع وعادل.

على مضض فتحتُ باب الغرفة 42، وهي قبو يمكن بتوافق الآراء استخدامه كسجن مؤقت لمعاقبة السلوك غير المقبول. استُخدم لأربع

Twitter: @ketab_n

مرات فقط طوال سنوات عملي في مستعمرة الجذام. قضى "سيون" المسكين الليلة التي يستحقها هناك فيه، وصباح اليوم التالي أيضًا: عقابه أغضبه فرفض الخروج، فلما عرض عليه "إيمستزلو" بسخاء التنازل عن نصيبه من جواهره الحمراء كثيرة العصارة؛ خرج "سيون" منتحبًا؛ واحتضن الأعداء السابقون بعضهم بعضًا، وعاد كل شيء إلى طبيعته.

تغيرت أحضان "سيون" و"إيمستزلو" الدافئة لاحقًا إلى العلاقة الحميمة داخل الغرف عالية السقف، على مراتب ممتلئة بالصوف المتعفن، وفي الحمامات، والممرات المسدودة في مستعمرة الجذام. ولم أفهم أبدًا كيف تغلَّبا على تشوُّه جسديهما المعتلين بالمرض، لم يكن لسيون أنف؛ ولكن ثقب مجوف، مظلم ورطب، يمكنك غرز أصبعين على الأقل فيه. ولم يكن باقي جسده يتمتع بجاذبية خاصة، ساقه اليمنى دون قدم، يجرها على الأرض وراءه مثل جثة، بينما ترفع كتلة كبيرة للغاية من اللحم المتصلب رداء الكتان خلف ظهره.

عانى "إيمستزلو" من شكل تشويه مختلف، كانت ملامح وجهه كلها سليمة، ولكن هذا المرض يؤثر على مفاصل كل الأطراف، وهو ما جعل له مشية تذكرنا بحركات دمى الوحوش في أحلك كوابيس طفولتنا، وأيًّا كانت العلاقة الجنسية بين هذين التعيسين، فإنني واثق إن "إيمستزلو" لم يكن يجلس على ركبتيه أبدًا.

Twitter: @ketab_n

بدأت الشكاوى لأول مرة عن العلاقة بينهما لأسباب انتهازية واقعية وسخيفة للغاية على حد سواء، أعلن العدد "36" من الجريدة الطبية (يناير 1984)، المنشورة في بوخارست تحت رعاية الأمم المتحدة بفخر، ظهور مرض جديد سيغير وجه الأرض. في الأيام القليلة اللاحقة قَرأ الجميع الصفحات عن "متلازمة نقص المناعة الذاتيَة"، البعض قرأ بسخرية، والبعض الآخر قرأ بعدم فهم، كما لاحظت أن ظهور هذا المرض الجديد غرس درجة من الحسد أيضًا. يمكنك القول إن ضحايا الجذام يكنّون له رهبة غريبة، وتلا ذلك نقاشات مريرة في الفناء، وألقيت بيانات لا معنى لها، وبازدراء وكراهية كاملين؛ ادعى البعض إن الإيدز مهزلة طبية تهدف إلى صرف النظر عن مصائب الإنسانية المعترف بها: من الطاعون، والسرطان، والزهري، وبالطبع الجذام. إنهم أحبوا مرضهم واحترموه كخصم جدير بذلك.

قرأ "اينجمار زولتان" بصوت عالٍ: "ينتقل الإيدز في المقام الأول عن طريق متعاطي المخدّرات الوريدي، والمصابين بالنزف الدموي، والمثليين جنسيًّا"، في حين أومأ الآخرون في جوٍّ من الأهمية وتبادل الهمسات التي لم يكن غريبًا تردد أسماء "سيون" و"إيمستزلو" فيها. مع هذه المعرفة الجديدة، تغيرت الاتجاهات نحو العاشقين إلى حد كبير. أساءوا فهم طبيعة المرض الجديد، واعتبروا ممارسة الجنس المثلي في حد ذاتها مؤدية للشرّ الجديد، وتحاشوا "سيون" و"إيمستزلو" ... كأنهما مجذومين. كان أمرًا ممكن تفهمه.

Twitter: @ketab_n

أما وأولئك الذين ليسوا على دراية بالمزاجات المتقلبة لعقل المجذوم وجسده المشوه فسوف يجدون صعوبة في فهم سلوك المجذوم الذي يبدو غير عقلاني، والذي غالبًا ما يضرب بجذوره في دوافع خارجة عن أولئك الذين من العالم الآخر - عالم غير المجذومين. كانت نفس الآلية التي تسببت في حرمان "سيون" و"إيمستزلو"، ولكنها مخفية بالضجة حول "المرض الجديد" ورسله المزعومين من المثليين جنسيًّا.

على مر السنين أدت حقيقة الجذام إلى قاعدة مفادها أن العواطف مستحيلة وممنوعة في مستعمرة الجذام: كنا جميعًا جسدًا واحدًا يعيش المرض، وينام فيه، ويموت به. هذا الترتيب العملي، إذا جازت لي الصراحة، يمكن أن يعتبر جزءًا من التوازن الطبيعي الذي يهدف إلى الحفاظ على الصحة البدنية والعقلية الهشة للجنس البشري.

تدهور القضيب يقضي على الغرائز الإنجابية وإمكانية الحمل داخل مجتمع المجذومين.

في مستعمرة الجذام، مع أحد عشر رجلًا، كان هناك تقريبًا امرأة واحدة. صغت العبارة السابقة بهذه الطريقة لأن المرأة الوحيدة، العجوز الروسية "مارجريتا يوزيبوفتش" مزروعة في شبه حالة سُبات، منذ زمن أقدم مما أتذكر، ولم تغادر غرفتها لعشر سنوات متواصلة، ولكن الموت لا يريد طرق بابها بعد. كنت الشخص الوحيد الذي يزورها؛ أطرق بابها مرة أسبوعيًّا،

Twitter: @ketab_n

انتظر بصبر أن تنطق أحبالها الصوتية غمغمات مسموعة بالكاد، قبل أن أدخل لأقيس نبضها وأطعمها بعض الحساء بالملعقة، وسوف ترد "مارجريتا" بحكي قصص، وذكريات تعود ليس إلى الأيام الأخيرة من روسيا القيصرية ومعسكرات الاعتقال القاسية في سهول سيبيريا فحسب، وإنما أيضًا إلى أوائل تاريخ مستعمرة الجذام بعد فترة وجيزة من تأسيسها.

صوتها الخشن يأتي من داخل أعماقها، يملأ تردده المنخفض الغرفة. بعد عشر دقائق شعرت أنه يتردد من كل مكان، تحدثت بطلاقة وبلهجة ثابتة ذكرتني بتسجيل جرامافون قديم.

تدفعني لغتها الروسية أحيانًا إلى الجنون. وتتحدث عن فترة القيصرية باستخدام مجموعة متنوعة من الصفات القديمة والغريبة، والتي زعزعت روسيتي التي تعلمتها في المدرسة الثانوية الروسية، عندما تحدثت عن روسيا الحمراء؛ كانت مثل موكب من أسماء متغطرسة للجان مختلفة وألقاب صغار المسؤولين الستالينين الذين يعود إليهم الفضل - إذا كنت فهمت بشكل صحيح - في البقاء في سيبيريا المتجمدة مع زوجها لسنوات طويلة متواصلة، وهناك في معسكر جولاج 32-أ، تعاقدت "مارجريتا" مع بكتيريا هانسن العَضَوية في مقابل عمل لها. منسحقة تحت عبء الجذام الثقيل، تمكنت هذه المرأة الشجاعة من الاحتفاظ بعقلها سليم حتى النهاية، ولكن تخلت عن جسدها، حررته

Twitter: @ketab_n

واعيةً، وآملة في شفقة رفقائها المجذومين. أمضت السنوات العشر الماضية طافية على بحر الذكريات الأسود، وشاكية باستمرار من البرد، برودة سيبيريا، الساكنة في جمجمتها للأبد.

عذابي، وعذابهم يبدأ منذ الفجر؛ كخطّ من مآزر العمال الزرقاء العمال المتوجهين إلى العمل، وأنت تواجه يومًا كاملًا من الألم متفاوت الدرجات، فإن تواصلك مع بقية العالم عادة ما يبدأ بالبحث عما إذا كانت هناك أي تغييرات جديدة في جسمك، واعتمادًا على ما رأيت، فإن مزاجك الناتج يتراوح من الاكتئاب المؤدي للانتحار إلى خفة السعادة.

تعكس المرايا في غرف مستعمرة الجذام مشاهد كأنها من الجحيم، كل غرفة بها مرآة، ومنذ ساعات الصبح الأولى يمكنك سماع الشتائم أو عواء الألم؛ الدليل على أن الجذام كان مشغولًا خلال الليل، الخوف يدفع العديدين إلى تخيل أن الحدبة الموجودة على ظهورهم قد نمت بين عشية وضحاها، أو أن ذلك الجزء من أنوفهم اندفع إلى اليسار، أو أن جلد ظهر أيديهم أصبح خشنًا بصورة غير طبيعية. فقط تخيل ما الذي يفعله المرض في الجزء الخلفي من أعيننا: مجرد صداع عادي يدفعنا إلى شتى أنواع الأفكار!

لذا كان مرض الجذام منحوتًا علينا، ليس جسديًّا فقط وإنما ذهنيًّا أيضًا، وأحيانًا يشوّه حالتنا العقلية بطريقة مشابهة لجروح ظهور وأكتاف المجذومين الغائرة، لا يمكنك توقع أن تؤدي هذه الظروف إلى

Twitter: @ketab_n

اللطف والتفاؤل، ولكن هذه الفضائل كانت موجودة بلا شك في مستعمرة الجذام أيضًا، ربما جعلها القبح الجسدي أسهل على ذلك الآخر، وأكثر تأصلًا وعمقًا في الطبيعة البشرية عن الظهور.

لم يكن لدي أي سبب على الإطلاق للشكوى من زميل غرفتي "روبرت دبليو دنكان" الذي حافظ على طبيعته البهيجة رغم المرض، متجاهلًا مصائده ومصائبه. كما كان محظوظًا جدًّا لتقدم المرض ببطء شديد، وغير مكترث إلا بنفسه، وموجهًا بالساعة البيولوجية أو الإلهية الغامضة، عندما اعتقد أنه قد يشفى منه.

جعل "روبرت" السنوات التي قضيتها في مستعمرة الجذام تبدو أقصر، لم ينس أبدًا عيد ميلادي وقدم لي دائمًا هدايا ملائمة تمامًا لذوقي واحتياجاتي، وكانت أغلاهم، أسطوانة "جوجتون بريسينج" اليوغسلافية عليها ألبوم البيتلز (الأبيض)، الذي سيظل خالدًا في ذاكرتي إلى الأبد باعتباره صوت الطيبة والصداقة الكاملة. أتذكر "إينجمار زولتان" العجوز يستمع إلى أغنية البيتلز "العودة إلى الاتحاد السوفيتي"، وهو يشهق بفرحة لاعتقاده أنها مقطوعة دعائية، ومسيرة عسكرية تنقل إنذارًا نهائيًّا إلى الدبابات السوفيتية في شوارع بودابست، وفي كل يوم يسير بخطى عسكرية صعودًا وهبوطًا في الممرات راغبًا في المزيد، وصارخًا بفرحة أغانٍ هجينة ممتلئة بشعارات معادية للسوفييت.

Twitter: @ketab_n

كان لهدايا "روبرت" هالة غامضة من العمق والحميمية.. وكنت أحب تقليبها بحنان بين يدي وكان لدي شعور غريب بأنني أمتلكها منذ فترة طويلة، جالبةً لي ذكريات قديمة جدًا. سطح من أوراق الكوتشينة القديمة، وسكين جيب له مقبض من خشب الورد، ولوحة صغيرة بالألوان المائية الصينية مؤطرة بخشب الأبنوس، وغليون تركي: كل واحدة من هذه الهدايا لها مكانها الخاص على طاولتي المجاورة للسرير، لكن رفض "روبرت" بعناد أن يخبرني كيف جاء بها، وبعد الإلحاح عليه عدة مرات توقفت. ربما كانت لديه بعض القدرات الخاصة، مثل المواهب الأدبية أو الموسيقية. قبل عيد ميلادي بعدة أيام تابعت تحركاته عن كثب، ولكن "روبرت" لم يغب عن عيني أبدا لأكثر من نصف ساعة؛ وهي فترة ليست كافية للذهاب إلى أقرب قرية أو مصنع الأسمدة. أحيانًا يتمشى في الفناء ناظرًا نحوي بابتسامات غامضة، عالمًا أنني أتحرَّق لسؤاله ثانيةً: كيف؟

كانت الهدية التي منحها لي بمناسبة عيد ميلادي الاثنين والأربعين في 2 أبريل 1989 محفوظة ليس على طاولتي المجاورة للسرير؛ وإنما في داخل الحشوة الصوفية للمرتبة، وضعها "روبرت" بجانب المنبه حتى أستطيع رؤيتها عندما يرنّ الصاروخ الروسي بهستيريا، وعندما رأيتها، رنت رأسي بالإثارة أيضًا، كانت صدمة حولت أيام الربيع المسالمة إلى فيض من الشكوك والافتراضات والآمال. ماذا كان أكثر من الصورة الكبيرة لـ"نيكولاي

Twitter: @ketab_n

تشاوشيسكو"، والتي كانت لسنوات تبتسم بغموض من مبنى إدارة المصنع المقابل، ملطخة بالقطران لدرجة يصعب التعرف عليها.

خلط "روبرت" أوراق اللعب بينما نظرتُ باتجاه الجبال في الغرب. خلف حافة جبال ألب ترانسلفانيا تقع أوروبا، غارقة في ليل آخر، شعرت بها تطن مثل ملكة نحل ضخمة ترسل سلسلة من الإشارات المشفرة، عندما سرق "روبرت" من خلفي ونقر على كتفي، طارت البطاقات من أيدي الخائفة وخرجت من النافذة، سقطت ببطء، كما تبدو، ببطء شديد جدًا، متبعثرة في هواء الربيع الكثيف. وكنت أعرف إن شيئًا ما كان على وشك التغيير.

ضحك "روبرت" من يَدَيَّ الْمُتَوَتِّرَتَيْنِ. فتح بهدوء علبتين من حلقات الأناناس، واحدة لكل منّا، وشعرت كما لو أنه فتح صندوقي باندورا. في صباح اليوم التالي كان يمكنك أن تراني أمشي أسفل الدرج حاملًا بعناية علبة الصفيح المليئة بالماء لجلب الزهور، تلك النرجسات الرائعة المغروسة على طول الجدار الجنوبي لمستعمرة الجذام.

ولكن لم يكن هذا هو السبب الوحيد الذي دفعني للاستيقاظ قبل الآخرين في 16 أبريل 1989.

Twitter: @ketab_n

الفصل الثاني

شعرت بالألم عندما ابتلعت الأناناس، ولكن "روبرت" أخبرني أن ذلك مجرد مرحلة عابرة، وبعدها سيصبح مريئي مخدرًا تمامًا، وهو ما يفسر ابتلاع مرضى الجذام الفحم الساخن أو أكل الزجاج مقابل المال كثيرًا في الماضي، وأخبرني أنني سوف أعتاد على ذلك مع مرور الوقت، ورغم أنني سوف أفتقد إحساس حرق الشاي الساخن الممتع، فإن أهم ما يفتقده "روبرت" هو تحرقه شوقًا إلى عشيقه "جيم بيم بلاك". كان "روبرت" أمريكيًّا، أتخيل أنه الأميركي الوحيد المصاب بهذا المرض القديم على هذا الكوكب، وأنه كتب إلى عدد قليل من أصدقائه وعمة عجوز له في جورجيا يخبرهم أنه مصاب بالإيدز، وسوف يقضي ما تبقًّى من عمره في القارَّة القديمة، وأنه يريدهم أن يتذكروه كما كان موظفًا في

Twitter: @ketab_n

الجيش الأمريكي، وليس مجرد ظلًّا ضعيفًا من نفسه السابقة. أخبرني أنه أصيب بالجذام من بيوت دعارة أمستردام في عام 1982، ثم انتقل سريعًا في الحكي عن حلقات من تدريبه في ولاية أريزونا، لم أسأله أي أسئلة أخرى، مقيدًا بأخلاقي الطيبة، رغم علمي أن لا أحد من أبناء الجذام يمكنه تفسير كيفية إصابته بالمرض في جملة واحدة فقط، ودائمًا ما تكون حساباتهم شاملة ومنظمة بدقة، يتحدث مرضى الجذام بسرعة شديدة، أو على الأقل بطريقة سطحية، كلما سُئلوا كيف وصلوا إلى مصيرهم، روبرت الوحيد الذي أخبرني الحقيقة كاملة متشجعًا بصداقتنا بعد أن قضيت في مستعمرة الجذام عدة سنوات.

كان النرجس تذكيرًا غير سارّ بموضوع الجمال وانعكاسه دائمًا، ولم أكن لأتفاجأ إذا ذبلت تلك الزهور الرائعة فجأة عند مرأى وجهي المشوه، رغم أنني لم أفقد أي جزء هام، فأنفي وخداي وجبيني تغطيهم الثآليل الكبيرة، كما لو كانت حبات بازلاء تنمو تحت جلدي، وتطور مرض الجُهام، حتى اختفى نمو حاجباي، ورموشي وشعري ولحيتي منذ فترة طويلة، ولكن غضروف أنفي لا يزال في حالة جيدة إلى حد ما، بفضل الجرعات المنتظمة من عقار "ثيوسيميكاربازون"، والأنتيمون، والمخدرات، التي كانت تُسلم بوفرة، يمكنك حقن نفسك كلما أردت: قبل الغداء، أو بعد الإفطار، أو عند الفجر أو في منتصف الليل، واعتمدت غالبية سكان مستعمرة الجذام حمية رخوة مثل هذه، غير عالمين أي سيف ذي حدين كانت، فسرعان ما

Twitter: @ketab_n

تصبح بكتيريا الجذام في مأمن من الأدوية لدرجة الاحتياج إلى جرعات ضخمة لوقف تقدم بكتيريا الجذام العَصَوية لمجرد فترة قصيرة، لكنني استطعت بمساعدة "روبرت" ضبط جرعات الدواء تمامًا للتأثير على الجذام في المدى الطويل، وفي عام 1984، عندما نفدت الأمبولات الأخيرة من المواد الثمينة، تحولنا إلى العلاجات بالأعشاب الطبية التي تمكنا من جمعها من محيط مستعمرة الجذام، وساعدتنا العديد من الكتب الروسية عن الأدوية العشبية على تنفيذ أكثر الخلطات فاعلية للحدّ من تضخم الأورام وألمها، وهَدَّأَتْ كمادات من أوراق البنفسج البرية من الحكة التي لا تطاق التي تجيء في الأيام الممطرة، وأحيانًا ما تقود مرضى الجذام إلى خدش أجسادهم المشوهة بالفعل، مما ينتج عنها براكين من القيح والدم.

مُنحنا ثلاثين جرامًا من نبات "البلادونة" المقشرة والمفرومة والمنقوعة في لتر من الماء المغلي علاجًا مريرًا إلى درجة لا تصدق، ولكنه كان جيدًا لتخفيف الأعراض في الحنجرة والمريء، كما جمعنا لحاء أشجار "الدردار" الصغيرة على مدار العام من الغابة القريبة، وكان هو النبات الوحيد المذكور في وصفات تخفيف مضاعفات وأعراض الجذام، وهو ما جعله الأكثر شعبية بالنسبة إلى المرضى؛ قشرنا لحاء ساق شجرة "دردار" عمرها سنتان، وجففناه في مكان جيد التهوية أو في الشمس، وفرمناه فرمًا ناعمًا، ثم غلينا 1300 جرام منه في عشرين لترًا من الماء حتى تبخر نصف السائل، نحتاج إلى شرب 250 مل منه مثل الشاي واستخدام نفس الكمية في الكمادات كل

Twitter: @ketab_n

صباح، صنعنا الخليط في قدرين كبيرين في وسط الفناء وجلسنا حول النار، كان "زولتان" العجوز لديه بعض الخبرة في الطهي، ومهارته في تحضير اللحاء جعلت من العمل عملية سلسة، وضعنا السماعة على حافة النافذة وموّنّا النيران جيدًا، وأخرج الجميع كراسي صغيرة، أو سحبوا كتلًا من الخشب، وبدأ المرح؛ ليلة بعد ليلة يدور "الألبوم الأبيض"، جاعلًا الأقدام ترقص رغم تيبس الركب، وتابعت عيون مرضى الجذام الباهتة الشرر كما لو كانوا يطيرون إلى الجنة.

كان "روبرت" أحيانًا يأخذ قطعة من الخشب مثل ميكروفون متظاهرًا بغناء أغنية "السعادة هي بندقية دافئة" الرائعة، جاذبًا ابتسامات عاطفية تحولها وجوهنا المشوهة إلى صور شنيعة من حزننا، وعندما يعلو صوت أحاديثنا، يخفض صوت الموسيقى، قد تصدر أصوات صرير من تحت أغطية الكتان؛ وتُحكَى قصص من الحيوات الماضية: تُستحضر سير التعساء الذين يحبون الدجالين؛ يستحضرون الصور والكلمات المفقودة من دهليز الزمن المظلم، لا أحد يسأل مطلقًا ماذا قيل، يمكنك أن تحكي قصتك دون أن تعوقك التعليقات والشكوك لأن الجميع يعلمون أنهم سيكونون في وضع مشابة أيضًا.

لا يمكن التأكد إن كانت هذه السِّيَر حقيقية أم لا، لأنك عندما تصل المستعمرة، تؤخذ منك جميع الوثائق، والمتعلقات الشخصية والملابس

Twitter: @ketab_n

بوقاحة، وفي المقابل يعطونك بعض القطع القليلة من الملابس الداخلية، وقميصين من اللون الأبيض، وبلوفر جيش، ورداء عالي الجودة من الكتان بغطاء رأس كبير، يمنحونا الملابس الجديدة بانتظام، لذا لا يمكن أن يشكو أحد من سوء النظافة الصحية. بينما كان ثلاثة أطباء لطفاء للغاية برفقة جندي جيش روماني يعدّونني لإقامتي في المستعمرة، كنت أتوقع إنهم سيعلقون جرسًا حول عنقي؛ وهو حلية أساسية لمرضى الجذام خلال القرون السابقة من أجل تحذير المسافرين أن واحدًا من أولئك المحرومين من محبة الله، قادمًا على الطريق. لحسن الحظ لم يحدث ذلك، ولكن كان هناك شيء حاسم مخيف في إجراءاتهم المنسقة جيدًا، وأدركت منها أنني لن أُرسل كي أتلقى العلاج بل أُعد من أجل رحلة مختلفة؛ إلى مكان ما خارج قواعد هذا العالم، من الأنسب تسميته مكان "عزل المرض" بدلًا من العلاج الطبي، وددت الاحتفاظ بساعتي، وجواز السفر، وحلية برج القوس الذهبية الصغيرة، عندما أثرت هذه الإمكانية، أجابني أحد الأطباء بسخرية لطيفة أن الأمور ستكون أكثر أمنا إذا اعتنى بهم حتى ينتهي علاجي.

في الوقت نفسه ألقى بهم أحد زملائه في وعاء معدني كبير، بينما أمطر عليهم آخر مُقَنَّع مسحوقًا أبيض، وانغرست إبرتان كبيرتان في فخذي، وحقنتاني بمضاد الاكتئاب القوي وأولى جرعاتي من عقار "ثيوسيميكاربازون"، أدار الطبيب رقم صفر في قرص الهاتف الأسود

Twitter: @ketab_n

وهمس في المتحدث: "إنه جاهز"، ثم ربطوني في إحدى سيارات الإسعاف المتهالكة، حاولت التحدث، ولكن الحقن أخرست كلماتي إلى حركات ذراع لطيفة وتجاعيد على جبهتي، وانعوج لساني في فمي، مسيلًا اللعاب إلى أسفل ذقني وإلى الأرض مباشرةً، استندت بوجهي على زجاج الباب الخلفي الذي تتخلله أسلاك دقيقة، سرعان ما ستصبح محطة الإسعافات الأولية الصغيرة في ضواحي بوخارست ملطخة الحوائط بالبقع البيضاء والحمراء. ظهر الرجل الذي لم يكن موجودًا خلال الفحص في الخارج في الواجهة مستندًا على الجدار،ولوَّح لنا بشكل عرضي عندما غادرنا . ملابس سوداء بفتحة صدر واسعة، وسترة شعثاء، وشارب ضئيل محلوق بعناية أعلى صفين مرتبين من الأسنان: كان هذا هو الشخص، الذي أصبحت أعرفه لاحقًا باسم السيد "سموز"، الذي كان قد سمع كلمة الطبيب "إنه جاهز" منذ عدة دقائق، وبارتياح أشعل سيجارته، كانت تتدلى في يسراه عندما غادرنا.

اهتزت سيارة إسعاف على طول الطرق المجدورة في طريقنا إلى مستعمرة الجذام بينما جلست على مقعد خشبي في الجانب، ظهري مسنود على المعدن، وعَرَض الزجاجُ المعشق بالأسلاك الذي بحجم شاشة التلفزيون مزجًا تدريجيًا من مناظر الشتاء الطبيعية الشاحبة بدون ثلوج، أراح القرويون في حقولهم الموحلة أيديهم على مقابض أدواتهم، وشاهدوا سيارة الإسعاف تمرّ، بينما ركض طفل قبيح للغاية إلى الطريق

Twitter: @ketab_n

وألقى حجرًا قرع المعدن، توقف السائق لحظة وألقى عدة شتائم بذيئة بالرومانية، واصلنا طريقنا، واستدرنا يسارًا إلى غابة من أشجار البتولا، وركنت إلى النوم من رتابة جذوعها البيضاء المائلة بفعل الرياح الشمالية، وكما أخبرني روبرت لاحقًا، فإن السيد "سموز" هو ضابط من الجهات الأمنية سيئة السمعة الذي أصبح مسئولًا مؤخرًا عن جميع مرضى الجذام في البلاد، ومن التأكد أنهم وصلوا إلى وجهتهم المحددة، وأنهم - بنفس درجة الأهمية- سيظلون هناك.

لم تتغير إجراءات التعامل مع الجذام تغيرًا ملحوظًا خلال عدة عقود منذ اكتشافه، فلا بد من تحقيق شرطين بسيطين لمنع انتشار هذا المرض جذريًا: أولًا: تقييد حرية حركة المجذومين بشدة، ثانيا: منعهم من ملامسة الأصحاء، الأمر نفسه كان متبعًا أيام رمسيس الثاني، أو شارل الخامس أو إيفان الرهيب، وفي العصور الوسطى أحيانًا ما كان المجذومون يتعارفون على وتد الحرق، فقط أخبر عامة الناس بفجور العدوى وناقليها.

وطالما أن الكنيسة ليست ملزمة بالرحمة، فقد اضطر المجذومون إلى إنشاء مجتمعات على أطراف المستوطنات، باحثين عن خلاصهم في النفايات، والأعشاب الطبية، والفواكه البرية الحامضية، وبمرور الوقت تصبح هذه المستعمرات مضطربة، وتنهب جحافل المجذومين القرى المجاورة، وتسرق

Twitter: @ketab_n

المسافرين إلى المدينة، ويستمرّ هذا الوضع عدة أسابيع أو أشهر حسب مدى تصميم نبلاء المدينة على سرج خيول الحراس، وحمل مشاعل النور من أجل شن حملة صليبية صغيرة ضد أبناء الشيطان.

ساهمت الأحداث في "سينسوتريجيوري" - وهي مدينة من ثمانية آلاف نسمة على بعد مائة كيلومتر من فلورنسا - إلى حد كبير في تغيير العلاقة تجاه مرضى الجذام في القرن السادس عشر، وأنشئت مستعمرة من أجل مرضى الجذام على مرمى حجر فقط من أسوار المدينة في أواخر القرن الخامس عشر في عهد البابا إنوسنت الثامن، المناخ المعتدل والجاف قبل أي شيء جعل المنطقة مشهورة بمرضى جذام جنوب أوروبا، وكان من غير المألوف بالنسبة لمرضى الجذام الوصول من مناطق بعيدة من الدول الإسكندنافية أو أسبانيا أو الجزر البريطانية. وساعدت الإمدادات الجيدة من الأعشاب، والإسطبلات العسكرية المهجورة وشبكة الطرق التي سمحت لعصابات المجذومين بابتزاز المال والطعام، على نمو مستعمرة الجذام حتى بلغ عدد سكانها ألفان أو ثلاثة آلاف نسمة في بداية القرن السادس عشر. وعندما اغتصب مجموعة من المجذومين ثلاث فتيات صغيرات بوحشية (بعض الحكايات تتحدث عن ذبحهن وأكلهن في حفلة عربدة أقيمت في ذلك المساء نفسه) جمع آباء المدينة بمباركة البابا قوة قوامها مائتين من المرتزقة المدججين بالسلاح: لطرد هؤلاء

Twitter: @ketab_n

الرعاع المنحرفين وإنزال عقاب دموي بهم. نشبت معركة، وترددت الصرخات الدموية المروعة حتى الساعات الأولى.

عندما انتبه سكان "سينسوتريجيوري" الفضوليون الانتقاميون إلى ساحة المعركة في ضوء الصباح، ارتعبوا لرؤية جيش منظم جيدًا من مرضى الجذام رافعين رؤوس أعدائهم، وعندما شارفوا على بوابات المدينة الهشة صرخت جحافل الغاضبين في حنق: "الآن"، وفي غضون ساعتين تحولت المدينة إلى "سدوم" تحت رحمة الجياع والمشوهين، وحينئذ انغمس الأذلاء في كل ملذات الدنيا التي حرموا منها لسنوات، وأطلقوا عنان دوافعهم الوحشية، وحلت نوبة من الاغتصاب والنهب والعربدة المقززة والقتل الوحشي على المدينة، وحولتها إلى فوضى عارمة، وفر السكان، المرعوبون من هذا المرض، نحو البوابات الشمالية وخروجوا إلى التلال.

وسرعان ما فرض مرضى الجذام حكمهم واستولوا على منازل النبلاء المريحة، عند الظهر، شُنق أربعة أعضاء من مجلس المدينة في الساحة الرئيسية؛ وانتُخب رئيس البلدية، وأصبحت "سينسوتريجيوري" مدينة الجذام "ليبروبوليس"، مجتمعًا قويًا يعمل جيدًا بفضل الموارد المالية المستخرجة من الخزائن المخفية في بيوت الأغنياء. وبطبيعة الحال، لم يكن هناك جيش مستعد لمهاجمة مدينة يحكمها الجذام، لكن مستعمرات الجذام في جميع أنحاء أوروبا عوقبت انتقامًا لـ"سينسوتريجيوري"؛ أُحرقت

Twitter: @ketab_n

أكواخها الخشبية بلا رحمة، ومُنح كل جندي إذنا ضمنيا بقتل المجذوم أو العفو عنه كما يشاء.

ولم يمر عقد على تأسيس مدينة الجذام، حتى استسلم أكثر من ثلثي سكانها لهذا المرض، وأدى هذا إلى تغيير: وصل حشد من ثلاثمائة من الخيالة وعدد مماثل من المشاة المسلحين تسليحًا جيدًا إلى أبواب المدينة عازمين على وضع حدّ لمدينة سدوم، واستعادة النظام الإلهي، وكان العديد من سكان "سينسوتريجيوري" السابقين ضمن الجنود مشبّعين بغضب الصالحين والكراهية المشتعلة. مهددين بزوبعة الأسلحة وحشرجتها. غادر مرضى الجذام المدينة بدون قتال، وخرجوا إلى الجبال بينما سيوف المنتصرين تلاحقهم

كانت هذه حكاية "روبرت" المفضلة، وكثيرًا ما كان يُطلب منه حكيها عندما نجلس حول المدفأة، وبعد وقفة درامية نهائية لم ينس قط ذِكر أنه إذا مررت بقلعة تلك المدينة الإيطالية الصغيرة شبة المدمرة اليوم، فما زال يمكنك سماع صرخات إخوتنا المسرفين الذين وقعوا في الخطيئة.

هزني الطبيب كي يوقظني عندما وصلنا إلى باب مستعمرة الجذام، منحوني طقم أدوات النظافة الشخصية ومنحني السائق سيجارة، إذا كنت قبلتها، أفترض أنه ألقاها لي بسرعة عبر فتحة النافذة الصغيرة. انتظر زولتان العجوز وروبرت دبليو دنكان على الجانب الآخر من

Twitter: @ketab_n

السياج وكانا أول شخصين يصافحاني منذ عدة أشهر، خطونا خلال طبقات كثيفة من الأوراق المتساقطة، ومشينا حول برك مجمدة، كانت مستعمرة الجذام مبنى من ثلاثة طوابق بسقوف عالية، رأيت ظلالًا داكنة تقف في عدة نوافذ مضاءة إضاءة خافتة، وكان الطابق الثالث فيه فتحات تهوية صغيرة فقط، وكان يُستخدَم للتخزين.

كانت الغرفة مُدَفَّأة جيدًا، وعدة حمولات من الحطب المقطع جيدًا مكدسة بجوار الموقد الحجري الموجود في الزاوية، وكانت هناك زهور على الطاولة المجاورة للسرير، ونسخة مقلدة من لوحة قارب ميدوسا فوق السرير، وصليب على رأس السرير. كان روبرت سعيدًا بوضوح بإنجليزيتي الجيدة وثرثر بسعادة عندما كان يرشدني حول المبنى الذي سيكون بيتي لسنوات قادمة. بعد أن أشار إلى موقع الحمام، تركني لتفريغ مثانتي، وكان العشاء في الثامنة والنصف، وغرفة الطعام في الطابق الأرضي. نظرت من النافذة وحاولت إلقاء نظرة على البيئة المحيطة عبر الظلام، ولكن كان كل ما رأيته أضواء بنفسجية تخفق بالقرب من مصنع الأسمدة.

كانت أروقة المبنى منحنية مثل الأهلَّة، إذا وقفت في وسط الطابق فلن يمكنك رؤية أيٍّ من الطرفين، وهو ما أربكني في البداية، وكنت غالبًا ما أذهب في الطريق الخطأ، وانتهى عند باب السلم المغلق المؤدي إلى السندرة.

Twitter: @ketab_n

اكتشفت من نظرتي الأولى إلى غرفة الطعام وجود مائدة مستديرة يمكن ضبطها لأحجام متعددة مع مجموعة بسيطة من الأطباق والسكاكين؛ ومرضى في ثيابهم الداكنة ذات غطاء الرأس جالسين في أماكنهم. عندما دخلت سمعت همهمة ودودة من لغات ولهجات مختلفة، ولكن لم يقف أحد لتحيتي، وأشار "زولتان" العجوز إلى كرسي شاغر بجانبه، وفي الوقت نفسه بدأ "روبرت" في تقديم المرضى الآخرين الذين "سوف أتقاسم معهم الخير والشر" على حد تعبيره، عندما كانت أسماؤهم تُنادَى؛ كان كل شخص يجيب بسحب غطاء رأسه إلى الخلف، ظهروا واحدًا تلو الآخر؛ الرؤوس التي شكلها الجذام، والجماجم المغطاة بأنسجة مختلفة من الأقمشة التالفة والممزقة، كانوا وحوشًا، لكن يتحدثون بأصوات بشرية، خلفت انطباعًا بأنهم أشخاص يرتدون أقنعة مروّعة، ثم ألقيت بغطاء رأسي أيضًا.

لا يمكنني زعم أنه ما زال لدي أي شيء مثل خدين ورديين، ولكن بشرتي كانت لم تزل ناعمة نسبيًا لولا قليل من البقع الخشنة الناجمة عن بدايات الجذام، انتفضت عضلات رقبتي كعلامة صحية أخيرة، وكان شعري قد بدأ لتوه في التساقط، وأثار كل هذا حسدًا مكتومًا وعدم تصديق لدقيقة، حتى كسر "روبرت" حاجز الصمت بتناول طبق بيضاوي من الخضار المسلوق، ومنحني وجبة كبيرة.

Twitter: @ketab_n

أعدنا الأغطية على رؤوسنا وواصلنا الأكل، كانت بقية الوجبة متبَّلة بالهمسات المسموعة بالكاد ومكتومة أكثر بأغطية الكتان، كما قدم لي الآخرون طعامًا أيضًا، بدون تفويت فرصة النظر في عيني مباشرة والتفتيش في يدي، والبحث عن علامات واضحة للمرض، رأوا بدايات الزوائد المتكتلة على مفاصل أصابعي والتي تشكل حجابا علُى عيني كذلك؛ و لمحوا لمعة دموع اليأس التي جفت وَاختفت قبل أن تتدحرج، ولكن مزاجي تحسن تدريجيًا، وبدا أنني قُبلت كعضو كامل العضوية في المجتمع.

ولاحقًا، عندما رجعت مرة أخرى إلى الغرفة، حاول "روبرت" تبديد الخوف الناتج عن أول مواجهة كبرى لي مع المرض، فسّر قائلًا إنه لم يتقدم الجذام أبعد من ذلك، وسوف نتلقّى برنامجًا منتظمًا من "ثيوسيميكاربزون" وسنفعل كل ما في وسعنا لتقليل الآثار، لم أكن أشاركه تفاؤله، وأجبرتني رؤيتي إلى عدد من المرضى الآخرين في وجبة الإفطار على إدراك أي وحش عنيد يسكنني.

شاهدت وجوههم عندما كانوا يمضغون بيضهم المقلي، كتل من اللحم الميت تهتز مثل الهلام وتلمع مثل الشحوم، تبدو أصابعهم المشوهة مثل كتل من الرصاص المنصهر، وعيونهم الغائرة تلقي انعكاسات الضوء الخافت الذي لا يكاد يصل إليها، بعضهم يقطع وجبته لحظة لإزالة قطعة من الطعام من تجويفه الأنفي المفتوح، وهو ما أثار شكاوى

Twitter: @ketab_n

صاخبة من الآخرين، لذا فإن عديمي الأنف المساكين مضطرون إلى مغادرة المائدة وإنهاء عملهم القذر بعيدًا عن الأنظار.

كان "زولتان" أقدم المقيمين من مستعمرة الجذام الأوروبية السابقة، التي عاش فيها منذ تأسيسها في عام 1928، وكان الناجي الوحيد من الاحتلال الألماني والإعدام الشامل عندما أُخذ سبعة وأربعون مقيمًا من المستعمرة إلى الميدان وذُبحوا في حفرة موحلة.

إنه يتذكر ضجيج العربات المدرعة في 14 ديسمبر عام 1942، عندما انهارت البوابة الحديدية، وصمم الجنود الشباب من شعبة "الأمير يوجين" على ... يا إلهي، وقد صمموا! ركض أربعة جنود شباب في سترة واقية صعودًا وهبوطًا في الممرات، وأيقظوا المقيمين، وأمروهم بمدّ أرجلهم والخروج إلى الفناء فورًا، خرجوا واحدًا تلو الآخر، فاركين عيونهم. وأوضح "زولتان" أن وصول الألمان لم يثر ذعرًا كبيرًا، كان المقيمون يشعرون بالدهشة أكثر من أي شيء آخر لأنهم في تلك المرحلة لم يكونوا يعرفون ما يجري في العالم الخارجي تمامًا، وافترضوا أن هذا مجرد إحصاء مهين لعدد الحالات تُجريه السلطات خوفًا من فرار المرضى وتسببهم في وباء. في الواقع، كان الجنود الألمان المدججون بالسلاح والواقفون في الفناء سببًا في الأمل في دخول النظام والرعاية الطبية المناسبة من أجل التخفيف من الظروف البائسة في المستعمرة، ولكن عندما أشار الضابط المسؤول نحو البوابة

Twitter: @ketab_n

ببندقيته "الشمايسر"، ولكز أول شخص في طابور مرضى الجذام في ضلوعه، طالبا منه التحرك، أدرك "زولتان" إن شيئًا آخر مدخر لهم غير العلاج الطبي العادي أو إحصاء عدد الحالات الملّ، وأكدت دقيقة إطلاق النار من الأسلحة الرشاشة شكوكه، فتدحرج تحت أشجار "الدردار" البالغة من العمر سنتين القريبة من سياج المستعمرة، وبكى "زولتان" بدموع باردة كبيرة سالت على الأرض، أراد أن يموت مثل إخوته، وأن يختبئ مقابل أجسادهم وينهي حياة مريض الجذام البائسة هذه في ذلك المكان غير المأهول من رومانيا.

طهر الألمان المبنى تطهيرًا شاملًا من خلال حرق كل شيء قابل للاشتعال في الفناء، كما دمروا عدة صور قيمة لماري ملكة رومانيا في اللهيب إلى جانب قطع أثاث غالية من خشب الجوز، كانت قد أُهديت مع الصور إلى مستعمرة الجذام من التاج الروماني، كما شاهد "زولتان" ابتلاع الحريق التذكارات المحفوظة بعناية؛ صور الأهل والأصدقاء، بالإضافة إلى بعض القطع الصغيرة العزيزة المحفوظة في الأدراج بجوار رؤوس أسرّة المرضى، جميعها اختفت وسط ألسنة نار الألمان الحمراء.

في ذلك الصباح أخبرنا "زولتان"، أن آخر آماله ذهبت أدراج الرياح، سواء كان في هذا البلد أو أراضي ما وراء الجبال التي تهمهم مثل ملكة

Twitter: @ketab_n

نحل بدينة ترسل الإشارات المشفرة؛ وأن هذا العالم لن يصبح أبدًا مكانًا جديرًا بمحبة الله.

جاب "زولتان" الغابات المجاورة حتى نهاية الحرب؛ كان ينام في الإسطبلات المهجورة والمنازل المحترقة، وأنشأ الألمان مقرًا يخضع لحراسة مشددة في مبنى مستعمرة الجذام، وكان الفناء لا تحرسه دوريات الحراس فحسب؛ بل ثلاثة كلاب حراسة من نوع "الألسيشنس" المتعطشة للدماء أيضًا، ولم يجرؤ "زولتان" على إلقاء نظرة عن كثب.

في 17 أبريل عام 1944، طلع عليه فجر برائحة حظيرة الدجاج الموجودة بالقرب من الطريق الرئيسي، واستيقظ على نفس أزيز الآلات الجبارة وأصوات الألمان الحادة، انتظر مرور الجنود ثم توجه إلى مستعمرة الجذام بخطوات متسارعة. الآن في الفناء حريق هائل يلتهم ممتلكات الجنود الألمان: حزم لا تحصى من الوثائق، كُتّافات من مختلف الرتب، وصور كبيرة لأدولف هتلر، إلا أن المبنى لم يمسّ، وبغض النظر عن الصليب المعقوف الكبير الملطخ بالقطران بفجاجة على جدار الواجهة قبل انسحاب النازيين، لم تكن هناك علامات واضحة على التدمير. على العكس، كانت النوافذ قد تم إصلاحها، والحمامات مُطهرَة، وأصبح لكل غرفة الآن موقدًا حجريًا صغيرًا، وأثاثًا عمليًا متينًا يزين غرفة الطعام التي كانت مصقولة إلى درجة الروعة، وفي المطبخ لا تزال رائحة آخر

Twitter: @ketab_n

وجبة عالقة في الهواء، والأواني الفخارية التي تحمل علامة الرايخ تلمع في الخِزانة الخزفية، لمسها "زولتان" بأصابعه الملتوية، ونظر إلى انعكاس صورته على الأسطح الخزفية البيضاء.

لمح في ركن من أركان غرفة الطعام قرن الجرامفون النحاسي المنتفخ، التقط إحدى التسجيلات المتناثرة على الأرض، لف الزنبرك، ووضع إبرة تسجيل الأسطوانة بلطف بين الأخاديد السوداء لأسطوانة كونشرتو البيانو لـ"جريج"، دوّت الموسيقى بينما ارتدى المعطف الأخير المعلق في الممرّ، ومزق الكتافات والصليب الحديدي من الصدر.

يقول "أليجرو مولتو موديرتو":

خرج "زولتان" إلى الجدار الجنوبي ليرى إذا ما كان لا يزال هنالك أي زهرة نرجس من التي تنمو عادة هناك في هذا الوقت من السنة.

ويقول "أداجيو":

يقطف "زولتان" النرجس بغضب، ويقتلعه من الأرض، وتقطر دموعه الباردة على البتلات المرنة.

ويقول "أليجرو مولتو مركاتو":

Twitter: @ketab_n

إنه يضع ببطء الزهور على المنخفض المستدير في الأرض غير بعيد عن مستعمرة الجذام.

ويقول "أسي ديث":

إنه يفرد نفسه على أرض الربيع الدافئة، على جثث أشقائه من مرضى الجذام الذين تحولوا إلى غبار.

يتغذى النمل على قذارة وعرق جسم "زولتان" غير المغسول، حاملًا تلك اللقم اللذيذة إلى ممرات مساكنه الضئيلة تحت الأرض. بعد نومه عدة ساعات، ذهب "زولتان" ليستحم، ويضمد جروحه بالضمادات النظيفة، ثم عاد إلى مثوى أصدقائه، وبدلًا من القول إنه صلى فوق قبرهم، نقول إنه قرأ بصوت عال الفصل الخامس من كتاب الملوك الثاني، والذي يشفي فيه اليشع نعمان المجذوم من سوريا ويعاقب "جيهازي" بالجذام، ليس من الصعب تخيل في مَنْ كان زولتان يفكر عندما تحدث عن تلك اللعنات من العهد القديم.

إذا سألته لماذا قرر أن يقضي بقية حياته في مستعمرة الجذام، فسوف يلوح باستخفاف ويقول بتسليم:

أنا في انتظار مجيء الموت، هنا هو المكان الوحيد الذي يمكنني الانتظار فيه بهدوء.

Twitter: @ketab_n

أصبحنا نعقد غداء تذكاريًا كل 14 ديسمبر لإحياء ذكرى وفاة زملائنا المرضى السابقين: نقف دقيقة صمت حدادًا، ونصلي صلاة مشتركة في المقبرة الجماعية، وبعد رواية القصة للمرة الألف، يجفف "زولتان" دموعه بإبهامه، الإصبع الوحيد السليم في يده اليمنى، وننصرف إلى السرير، انفضضنا في صمت، وتحركنا ونحن فخورون إلى حد ما بأن مرضى الجذام لعبوا دورًا في الحرب العالمية الثانية، وإن كان ذلك من خلال إعدام جماعي.

إذا تحرر "زولتان" من قيوده الوثائقية للحظة، وأطلق إلى خياله العنان، ربما كان قادرًا على تأليف قصة عن كيف سمع صيحات التحدي من هؤلاء المستعدين للموت وهو يرتعد تحت أشجار الدردار؛ ربما حكى أنهم بدءوا غناء "إنترناسيونال" في انسجام تامّ بلغات مختلفة حتى قطعه وابل من الرصاص في منتصف المقطع الثاني مثلًا، وطالما أنه الناجي الوحيد، والسلطات الشيوعية بعد الحرب حريصة على تقديم أساطير البطولة، فإنها قد ترحب بحكايته بعيدة الاحتمال بأذرع مفتوحة، وتبني نصبًا تذكاريًا جذابًا في الجوار، وتمنح مستعمرة الجذام نظام تدفئة مركزي

وبينما انحدرت يداي الخشنة بين رؤوس النرجس، نظرت حولي للتأكد من أنني المجذوم الوحيد المستيقظ في ذلك الصباح. قطعت السيقان الصغيرة، ووضعت الزهور في الماء البارد في علبة الأناناس القصديرية، وكانت هدية عيد ميلادي التي منحها لي "روبرت" مخبأة في جيبي الداخلي،

Twitter: @ketab_n

سبع زهور من النرجس: الحجر السابع من اليسار في الصف السادس من القاع، لكزتها بقطعة من الخشب وأزحت الحجر حتى أتمكن من التحكم فيها وسحبها، نصحني "روبرت":

ادفع باطراد واسحب ببطء

فكرت أن الحجر يصدر صريرًا مثل عجلة طاحونة قديمة، رغم أنني لم أكن في طاحونة قط من قبل، وكان أثقل مما كنت أتخيل، وضعت الحجر أرضًا بساقي، وطويت كمي الأيمن قدر استطاعتي، ووصلت يدي على استحياء إلى الحفرة المظلمة، تنفست برودة الجدار القديم وتوقعت أن يلمسني شيء ما، ولكنني لم أشعر بأي شيء، كان هناك فقط البرد ورائحة الطحالب، أخذت الهدية من جيبي، ووضعتها في الحفرة المظلمة، ودفعت قالب الحجر بصعوبة، ثم التقطت العلبة بعناية، وعدت إلى الغرفة، كنت متحمسًا؛ شعرت كما لو أنني زرعت بذورًا سحرية في الجدار للتوّ، وتساءلت ما نوع الفاكهة الغريبة التي قد تزهر.

Twitter: @ketab_n

الفصل الثالث

يقضي "روبرت" ساعات بعد الظهيرة مستريحًا في الغرفة إذا لم يكن هناك حاجة إلى جمع لحاء "الدردار" أو تقطيع الحطب، يجلس على السرير وظهره مستند إلى الجدار حتى يستطيع رؤية قمم أشجار ما وراء السور، وابتسامة "تشاوشيسكو" المفروضة على جدار المصنع، يأخذ كتابًا من على الرفّ، أحد الأعمال الأدبية التي لا معنى لها من مكتبته الشخصية المرتجلة، ويتصفحه بالتفصيل حتى يغمر وجه الدكتاتور ضوء الغسق الدموي، قد يقف في صفحات معينة، وينقطع الصمت بالحقائق والأرقام:

تعداد سكان رومانيا في عام 1903، أو كمية الألومنيوم المُصدَّرَة إلى بلدان الكتلة الشرقية، أو معدلات نمو الدخل القومي في السبعينات. وجد "روبرت" كل هذه الكتب في مفرغ قمامة المصنع الذي زاره هو وآخرون مرتين أو ثلاثًا خلال عام عندما يعمل العمال وردية واحدة فحسب، بسبب

Twitter: @ketab_n

عطلة وطنية ما، وتتبعثر مجلدات سميكة من مكتب الإحصاءات الوطنية بين بقايا الأثاث الصدئة المتآكلة بفعل الأمونيا.

ينطوي التفتيش في القمامة على مخاطر محددة لأن احتكاك جزيئات الأسمدة الكيميائية بقُرح المجذوم تسببان ألمًا ونزيفًا يستمر لعدة أيام، لذا يجب أن تكون اليدان والقدمان محميين جيدًا، وينبغي ارتداء قطعة قماش رطبة فوق الأنف. وجدوا فناجين مكسورة المقابض، وأطباقًا مزخرفة بالشعار الروماني القديم، وأدوات بالية باعوها لاحقًا لشخص آخر مقابل عدة عملات رومانية لا قيمة لها مصنوعة من الألومنيوم أو النحاس، أما نسخة الكتاب المقدس باللغة الروسية التي ضلت الطريق بين الكتب الإحصائية فكانت ثمينة بالنسبة إلى "روبرت"، وقرأها من الجِلدة إلى الجِلدة باهتمام، منعشًا معرفته باللغة الروسية. عندما يصبح "روبرت" منغمسًا في أحد كتبه ويقربه إلى وجهه المجعد أو يبل أصابعه حتى يتمكن من تحويل الصفحات بسهولة أكثر، يصدر صفيرًا من رأسه، بهدوء أولًا، لكنه يصبح أعلى تدريجيًا، ثم عرفت أنه كان يسير على طرق الأسفلت والإسبستوس الواسعة، ناظرًا إلى أشجار "القيقب" الخصبة من مدينته الأم "جينسفيل" مفكرًا في "جورجيا"، مدندنًا:

"عابر سبيل غريب. أسافر عبر هذا العالم من الويل".

Twitter: @ketab_n

لم يكن في حاجة إلى زمّ شفتيه لإنتاج اللحن، كانت أنف "روبرت" مشوهة على نحو جعل فتحة الأنف اليسرى، التي كانت ضيقة جدًا ومتورمة من الداخل، تكوِّن صافرة لطيفة متجانسة عندما يزفر بهدوء، وهو يستغل هذا، فعن طريق ضبط شفته العليا يستطيع إنتاج السلم الموسيقي بأكمله تقريبًا، وكثيرًا ما يحب القول: إن آلة أرغن قد نبتت في رأسه. ويدندن:

"وفي النهاية ليس هناك مرض، أو كدح أو خطر. في تلك الأرض المشرقة التي سأذهب إليها. سوف أزور فقط الأردن. سوف أزور فقط الوطن".

كان يفكر في وطنه الأم الذي شاهده آخر مرة منذ فترة طويلة، في عام 1969، عندما كان ضابط صف وضابط استخبارات في الجيش الأميركي في طريقه إلى برلين، في الواقع لم ير سوى السحب من خلال الكوة الزجاجية السميكة حيث حلقت طائرة هرقل رباعية المحركات فوق سهول تكساس وأوكلاهوما وميزوري؛ ولاحقًا ظهرت قمم جبال "الأبلاش"، أراد أن يكون منتبهًا وألا يسمح للنوم بأن يميل رأسه على المعدن الداخلي للطائرة، أراد أن يكون مستيقظًا عندما حلقوا فوق تمثال الحرية. في تلك الأيام، كانت الطائرات تقلع من المطارات العسكرية في غرب البلاد لعبور المحيط الأطلسي إلى قواعد في ألمانيا وإيطاليا، ومنها تواصل إلى فيتنام؛ وجميعها تنخفض بقدر كاف ليقول الجنود وداعًا للفتاة الممسكة بالشعلة ويبدءون غناء

Twitter: @ketab_n

النشيد الوطني الأمريكي، كانت رؤية تمثال الحرية واجبًا خرافيًا: إنها تجلب الحظ السعيد الذي يحتاجه المرء، ولكن "روبرت" كان ممددًا بشكل مريح قدر الإمكان، مشدودًا في زيه العسكري ويطوقه اثنان من الزملاء، واستيقظ فقط عندما كانت أضواء المملكة المتحدة تحتهم، مجرد ساعتين أخريين إلى برلين وسوف يطأ حذاؤه عالي الرقبة من نوع "سبايك آند سبان" أرض أوروبا؛ سوف يسيرون في القارة القديمة مسترشدين بأوامر واضحة وإرادة أكثر وضوحًا بأن يكونوا جنودًا جيدين مطيعين.

جالسًا في سريره، محدقًا في تيجان أشجار ما وراء أسوار مستعمرة الجذام، تحدث "روبرت" مطولًا عن شعوره عندما وطأ لأول مرة أرض أسلافه البعيدين، كان أول ما شعر به هو ألم لا يطاق لأنه قفز جذلًا من السلمة الوسطى في الممر، ففقد توازنه وسقط على هيكل الدعم الخشبي، انكسر اللوح وانغرست شظية كبيرة في جلد حذائه السميك حتى عمق أخمص القدم، رأى شررًا، وتدفق العرق البارد من تحت إبطيه حيث هرع إلى العودة إلى إيقاع مسيرة وحدته الحارسة، حتى لا يلاحظ أي شخص حادثته الصغيرة، سار بخطوة حازمة، وطوال الوقت كانت بحيرة من الدم تنساب تحت كعبه. تطلع إلى السماء فوق برلين، ظهرت أضواء الطائرات العسكرية الحمراء من السحب المنخفضة، وتخيل روبرت أنها قطرات من دمه اندمجت مع المطر وبدأت تتساقط على الأراضي الألمانية، وأخبرني أن أول تعارف مؤلم له مع أوروبا شكل

Twitter: @ketab_n

بطريقة أو بأخرى مزاجه العام على مدى السنوات التالية، كلما هبط سلالم برلين المنتظمة أو السلالم الأخيرة في محطة مترو الأنفاق، فإن قدمه اليسرى ترتعش ضعفًا؛ ارتعاشة عميقة ومؤلمة تذكره بالذي كان.

كان ذلك كثيرًا على ولعه، لذا لم يرتد الأحذية عالية الرقبة لفترة طويلة بعد وقوع الحادث، وارتدى بدلًا منها أكثر الأحذية راحة: من نوع "دكتور شول" الكلاسيكية لتتماشى مع بدلته المدنية ومعطفه الخفيف الواقي من المطر. إنهم ينتمون إلى مهمته الجديدة من الكشف عن شبكة المخابرات الروسية، التي كانت في ذلك الوقت – أواخر الستينات وأوائل السبعينات- ناجحة جدًا في الكشف عن جميع أنواع المعلومات حول مواقع وأنشطة القوات الأمريكية، وبغض النظر عن "نيكولاي فلاديميروفيتش سيجيدين" الذي تسمح له لكنته بلعب أدوار الفلاحين في الدراما الروسية في المسارح الصغيرة في برلين الغربية، فلم يقابل "روبرت" روسيًا واحدًا خلال عام كامل، كان ذلك دليلًا على مهاراتهم، كما افترض. حاول فهم ما الذي كان يبحث عنه فعلًا، لكنه لم يجرؤ على السؤال عن أكثر مما قيل له في جلسات الإحاطة الشهرية في مكتب الطابق السفلي بالمطار العسكري، إنه يعتقد أن طرح أسئلة سيجعله يبدو متشككًا فقط، لذا هز رأسه بتركيز وهو يدوِّن أسماء الحانات والمطاعم التي ينبغي عليه زيارتها للاستماع إلى همسات باللغة الروسية، فضلًا عن إنه لم يكن يريد خسارة إقامته المريحة في فندق أغسطس، 22 شارع "فاسينستراسا"، ولا الخمسمائة دولار الشهرية التي

Twitter: @ketab_n

حول نصفها فقط إلى "ماركات" ألمانية، واحتفظ بالباقي جانبًا لأوقات هادئة قادمة في جورجيا؛ سيارة "بويك" سوداء كبيرة، وقارب بخاري جيد ومعدات صيد من نوع "ميتشل".

بدأت أيامه في برلين بوجبة إفطار الفندق الممتازة تلتها قهوة الصباح في مقهى "بريو" غير البعيد عن ميدان "فينترفدتبلاز"، قاده كسل منتصف النهار نحو العودة إلى الفندق؛ إلى محلات بيع التسجيلات الشاملة الهادئة حيث استكمل مجموعته الخاصة من أعمال الملحنين الأوروبيين المشهورين، والمؤلفين الموسيقيين الأوربيين الأكثر غموضًا، وفي وقت الغداء سيتفحص النصوص المطبوعة بدقة على أغلفة التسجيلات، وبعد ذلك سيأوي إلى الفراش في غرفته لساعة قيلولة على أصوات جرامفونه الفيليبس. وجلبت عليه فترة بعد الظهيرة المزيد من المهمات: دروس اللغة الروسية، ساعة من قواعد اللغة، وأخرى من المحادثة، وحيدًا يتجول في شوارع الشفق ونوادي الطابق السفلي الليلية، ويشرب القليل من البيرة.

سوف يتذكر ربيع عام 1969 بالسير لمسافات طويلة مع "مارثا جولدبرج" وقهقتها في محطات مترو برلين الصوتية، لم يكن يعرف لماذا، ولكن ضحكتها ذكرته غالبًا بموسيقى الرقصة الهنجارية السادسة لـ"برامز".

Twitter: @ketab_n

أصبح الصباح مشرقًا ومعطرًا بالكامل، استبدل بدلته بسترة مخملية أنيقة واشترى قرنفلًا من بائع في الشارع. في تلك الأيام كان غالبًا ما يعبر عنه هذا النوع البسيط من الجمال الذي ألهبه فيه ظل "مارثا" العاهرة الذي يأتي منزلقًا على طول الرصيف، ويتزايد باضطراد أكبر فأكبر؛ أو عندما تغلف البائعة الجميلة، الخس وتحمله له بيديها النضرتين الحمراوين في كشكها المشمس.

كانت الأمور ستبدو مثالية لولا إخطار من مركز عملياته مدفوع تحت باب غرفته في الفندق بدون تكلف، يقول إن جميع الإحاطات ألغيت "حتى إشعار آخر"؛ وإن جميع ضباط المخابرات عليهم التزام الحذر وخصوصًا "عندما يكونون في مهمة خارجية" لأن هناك دلائل تشير إلى أن العملاء الروس أصبحوا نشطين باضطراد، و"لا يترددون في استخدام أساليب وحشية" للحصول على معلومات قيمة.

وتضيف حاشية مكتوبة بخط مائل: إن جميع الموظفين، نظرًا للمخاطر المتزايدة المترتبة على عملهم، سيحصلون على ضعف أجرهم طالما أن هذه الدرجة الثالثة من حالة التأهب سارية.

وذكر مركز العمليات أيضًا في حاشية على الحاشية أن العملاء الذين ألقت أجهزة المخابرات المعادية القبض عليهم، سواء بذنب أو بدون ذنب، سيعتبرون غير موجودين، وبعبارة أخرى، فإن المخابرات الأمريكية ستتنكر

Twitter: @ketab_n

أنهم عاشوا وتنفسوا ولن تتخذ أية خطوات لتحريرهم أو الدفاع عنهم. وكان "روبرت" قد اطلع على القواعد والمفردات من هذا النوع خلال فترة تدريبه في ولاية أريزونا، وكان يعتقد أنها مناورات لغوية غريبة في التجانس، ولكنها سهلت التواصل بين الأشخاص للغاية في مجال عمله.

بينما يحمل باقة من تسع زهور، شعر "روبرت دنكان" بضربة طفيفة على أسفل الجزء الخلفي من رأسه وموجة من التعب تغمره، تناثر القرنفل على الرصيف، رأى حجابًا رماديًا يلمع بآلاف الومضات، ثم لا شيء، كان يحلم بخنازير، قطيع من الخنازير القذرة، تجري دائريًا في دوائر وتكشف أسنانها، تذكر جسده الرحلة الطويلة عبر شوارع برلين، و عندما استيقظ أخبره الألم في ضلوعه أن مزيدًا من الضربات ستأتي

وفي النهاية، بدأت جفونه في التوهج بلون وردي ساطع، معلنة عن الضوء، الكثير من الضوء، ولكن "روبرت" تردد في فتح عينيه بالكامل، عندما أدار بصره لوهلة على أمل رؤية شاطئ رملي ومياه صافية جميلة وسط ذلك الوهج الشديد، صفع دلو من الماء البارد وجهه، وسمع صوت الماء الذي لا يزال يقطر والدلو يوضع على الأرض، ثم عدة كلمات قاسية تطالبه بالاستيقاظ، كان في غرفة جيدة الإضاءة بدون نوافذ، جالسًا موثوق الأيدي بتراخ على مقعد خشبي، وارتفع عمود من الدخان في الركن إلى يساره، ثم بدأ الدخان في الانتقال من اليسار إلى اليمين مع وطء

Twitter: @ketab_n

أحذية رقيق، رأى الأحذية والبناطيل البنية، ومشبك الحزام اللامع، وقميصًا مشمر الأكمام، ورأسًا كبيرًا بقناع ميكي ماوس، وعندما يريد الشخص أن يسحب نفسًا من السجائر، يمسكها بأصبعين ويغرزها في فتحة فم القناع الصغيرة، وعندما يزفر، تخرج خيوط الدخان البيضاء في كل الاتجاهات صانعة عُرْفًا حول ملامح الوجه الجامدة، ويبدأ ميكي ماوس طرح الأسئلة: متى، وكيف، وأين؟ وكم، ومن أين، ولماذا؟ أسماء وأسماء وأسماء، الماء يقطر من أنف "روبرت" ويحاول التقاط قطرات بطرف لسانه، وقال للمحقق كل ما يعرفه: فقط جمل قليلة بتفاصيل مهمة أساسية، استوعب الرجل ذو القناع وهز كتفيه في لا مبالاة، مدركًا أنه لم يكن هناك أي شيء آخر يمكن قوله، ثم أطلقت أحباله الصوتية ضحكا هستيريا، استعاض عن الأسئلة باللكمات، واللكمات تقطعها قهقهاته غير الطبيعية، وأخيرًا صمت بحقنة مُسكِّن كبيرة، وذاب ميكي ماوس في الظلام، وبينما "روبرت" يكافح من أجل الحفاظ على ما تبقى من بقايا وعيه، شعر أنه كان يجلس في طائرة، وكان تمثال الحرية يومئ إليه بشعلته المتوهجة: جاء ركضًا بخطوات كبيرة عبر المحيط، وكان لديه شيء يخبره به، ولكن سرعان ما حل الظلام على تلك الصور أيضًا.

هذه المرة لم يستيقظ بوهج وردي في عينيه؛ رأى ضبابًا بنيًا رطبًا يصوره ظلًا غير واضح لرجال ملتحين مُشعرين، دخلت رائحة ثقيلة من البراز البشري أنفه وملأت رئتيه مع رائحة حلوة غثة، كانت يداه حرتان،

Twitter: @ketab_n

وعندما فرك وجهه المتورم شعر بالألم، وخده الأيمن مغطى ببثرة مؤلمة، وعندما حاول فرد ظهره تدفق شيء ما أعلى عموده الفقري مثل لدغات ألف نملة حمراء، انساب شلال من الهواء البارد عبر نافذة عالية في الجدار بقضبان صدئة، ارتعدت ركبتاه من البرد.

عائدًا تحت شمس أريزونا فكّر في مخاطر عمله المحتملة، ولكن كل ما استطاع تخيله هو شوارع برلين الرطبة المرصوفة بالحصى المليئة بحشرجة عربات الترام المتقطعة، والتي يتجول فيها أشخاص طوال القامة من عملاء روسيا وألمانيا الشرقية المهندمين، ونقلته فكرة أنه سيصبح جزءًا من هذا المشهد، وأراد أن يكون في أوروبا: خليط من لغات مختلفة تفصل بينها حدود تخضع لحراسة مشددة، والقارة القديمة مشبعة بالدم والتاريخ، وتزامنت توقعاته مع الصورة النمطية الغريبة التي يحلم بها كل أمريكي من زيارة وطن أجداده على الأقل مرة واحدة في حياته، وكان مستمتعًا بذلك الشعور.

كانت الزنزانة كريهة الرائحة أسوأ من أي شيء يمكن أن يتصوره "روبرت"، كان يريد أن يكون في أوروبا، والآن أصبح هنا، وعندما اعتادت عيناه الظلام تقريبًا رأى قرميدا خلف قضبان النافذة، مما يعني أنه في قبو مرة أخرى، وشعر بشيء يتحرك فوق رقبته، توترت بطنه وأصبح تنفسه سريعًا، وشرع في البكاء.

Twitter: @ketab_n

أيقظه من نومه إطار ضوء مستطيل، مبرزًا معالم المدخل، وكان لديه اعتقاد أن الباب على الجانب الآخر، لذا لم يكن متأكدًا ما إذا كان يتخيل الضوء فحسب أو كان يراه حقًّا، ولكنه رأى أبعاد الزنزانة بوضوح أكثر الآن، كل حشرجات السعال المفاجئة جاءت من الناحية اليمنى من تحت كومة من البطانيات القذرة، في أحد أطرافها علقت بها قدم،تبدو سوداء تقريبا، وفي الطرف الآخر رأى خصلات شعر ناعمة وذراعًا ممددًا بجوار الجسم، وكان عضد الذراع مغطى بانتفاخات بثور كبيرة ناضحة بالقيح والدم، وكان اللحم متحللًا.

زحف "روبرت" على ركبتيه نحو الجثة المتحللة، وتطلع إلى الوجه ما بين خصلات الشعر، ولكنه لم يجد إلا انتفاخات متصلبة مستعدة لأن تتحول إلى تقرحات مروعة، أعاد البطانيات المتسخة على الوجه، أصيب بالغثيان من رائحة تعفن الجسم التي لا تطاق المنبعثة من جثة تتخلى عن المظاهر الأخيرة للحياة، لم يكن لديه قوة حتى لطرق الباب؛ وكان خائفًا للغاية، يبدو أن العدوّ يخرق قواعد اللعبة بوقاحة، شعر أنه يغرق في غيبوبة مرة أخرى، وفي الوقت نفسه تمنى أن يستيقظ في مكان آخر، فليكن في أي مكان، حتى في مكان أكثر فظاعة، ولكن ليس هنا في هذا القبر.

أعاده إلى وعيه دوران المفتاح المختلس في القفل الصدئ، ثم جاء الضوء: طوفان من الضوء كشف له أنه لم يكن هناك أحد آخر في الزنزانة غيره

Twitter: @ketab_n

سوى الزومبي تحت البطانيات، في الواقع كان ظل الرجال المشعرين هو أكياس كبيرة ممتلئة بالطمي، يمكنهم قتله هنا، وتقطيع أطرافه وشطر جذعه إلى نصفين، ويمكنهم وضع القطع في خمسة أو ستة أكياس ودفنها في عدة مقابر منفصلة، قرر أنه يجب أن يعبر الباب ويبدأ الزحف، وخز ركبتيه لا يطاق، وجهه المتيبس المشوه باللكمات يطقطق مثل أوراق الشجر الجافة كلما كشر ألمًا، نجح في عبور الباب، ولكن قبل أن يتمكن حتى من رفع رأسه رحبت به بيادة سوداء في ضلوعه، قوية وسريعة، وجاءت ركلة أخرى من الجانب الآخر، صُفق الباب وراء ظهره، وكان مسرورًا لسماع هذا الصوت؛ تخيل أنه لن يكون مضطرًا إلى العودة إلى الزنزانة الآن، اعتلاه اثنان من حليقي الرؤوس، رجلان يرتدون زيًّا أخضر فاتحًا دون شارة، ويكشف وجهاهما عن لا مبالاة ورضا ساخر عن وضع "روبرت".

وبينما روبرت يجلس القرفصاء على السرير، ويحكي لي عن مصائبه في برلين، يقَلِّب صفحات الكتاب المقدس شاردًا، حتى إنني كنت أتخيل في بعض الأحيان أنه كان يقرأ كل شيء من الكتاب، تركت أصابعه آثار عرق على ورق الكتاب المقدس الشفاف، كما تركت كلماته مجموعة من الأسرار عن روايته لكنني لم أجرؤ على توجيه أي سؤال، خاصةً مع الدموع التي تفيض من جفون "روبرت"، وعندما مزق صفحة من كتاب موسى الثالث في غضب (كان سيلصقها بدقة مرة أخرى في اليوم التالي).

Twitter: @ketab_n

ولكن في تلك النقطة، وفي اللحظة التي تمزقت الكلمات المقدسة من ترتيبها القديم قِدَم آلاف السنين، أضاف صديقي شيئًا إلى القصة المجهضة على أرضية زنزانة برلين المجهولة، أمسكت به أذرع قوية وسحبته إلى أسفل ممر طويل انفتح في نهايته باب آخر، اصطدمت ساقاه بالسلالم الصاعدة، وخفق قلبه بعنف لفكرة أن تلك الرحلة قد توشك على النهاية، في أعلى الدَّرَج لفحه هواء الربيع النقي، مما أدار رأسه، ورأى قمرًا جديدًا معلقًا على علو منخفض فوق المباني المجاورة التي لا يسطع فيها أي ضوء. لم يكن لديه أدنى فكرة عن أين يوجد، وبعدها كانت هناك ضربة ثقيلة أخرى على مؤخرة رأسه.

ألقوا به على نفس الرصيف، ربما في نفس المكان بالضبط الذي تبعثرت فيه باقة القرنفل التي كان سيأخذها إلى "مارثا جولدبرج"، كان هناك هاتف عمومي في محطة الحافلات على بعد حوالي مائة متر، والعديد من الناس ينتظرون، وتمنى لو أنه يستطيع الحصول على بعض القطع النقدية منهم للهاتف، فكلما اقترب منهم انسحبوا جميعًا إلى الوراء، أدرج رجل عجوز بسرعة بضعة عملات معدنية وتركه يتصل هاتفيًا، ابتلع الهاتف القطع المعدنية، وأبلغ صوت مألوف في الطرف الآخر "روبرت" ببرود شديد أنهم سوف يقبلونه خلال عشرين دقيقة، أراد شكر الرجل العجوز، لكنه فقط رفع عصاه وصاح:

Twitter: @ketab_n

"ارجع مكانك!"

جلس "روبرت" على أحد المقاعد يتلمس بإصبعه القروح والكدمات، الآن فقط بدأ في إدراك ما حدث فعلًا، كان يعلم أن حياته المهنية كضابط استخبارات جزيلة الأجر في الجيش الأمريكي قد انتهت، لأنهم لم يسمحوا له بالتحدث، ورغم أن هذه تبدو تفصيلة ضئيلة، فإن المعلومات التي يعرفها (والتي "أصبحوا يعرفونها الآن") هي قلب العمل، وجوهر الأسرار، ويجب حمايتها بأي ثمن، كان يتوقع قدوم سيارة مرسيدس كي تأخذه إلى المستوصف والمستشفى في المطار، ولكن بدلًا من ذلك كانت شاحنة فولكس فاجن صفراء، بنوافذ داكنة، وعلى جوانبها إعلان عن منظفات، انفتح الباب الخلفي، ولوح له رجل يرتدي "أفرول" كي يدخل، هناك بطانية جيش خشنة مفروشة على الأرضية المعدنية، وانصفق الباب، وتذكر "روبرت" قناع ميكي ماوس وابتسامته الجامدة التي نقلت بشاعة وشلل الرهبة، وأَسِف على أن رحلته الأخيرة في شوارع برلين في صندوق معدني، لا يرى عبر لوح الزجاج الصغير من خلف القضبان سوى رؤوس تتمايل كلما استدارت الشاحنة في منعطف، وصلوا إلى المطار أسرع مما تمنى، وبعد ذلك: الهدوء، ووقع أقدام الأحذية العسكرية المنتظمة، والنقالة، وطبيب مبتسم، وممرضة جادة، وقاست قفازات مطاطية نبضه، فكر أن ما يحدث عادي، والإجراء لا يعني شيئًا.

Twitter: @ketab_n

تكمن قوة الآلة العسكرية الأمريكية في تقيدها الصارم بالإجراءات، لذا كان على "روبرت" المرور بسلسلة كاملة من التدابير المقررة لمثل هذه الحالات، وتلى الفحوص الطبية الصارمة استجواب طويل تطرق إلى أكثر التفاصيل دقة؛ هل كانت هناك أي كتابة على جدران الزنزانة التي احتجزت فيها؟ ما طول المحقق؟ هل كان لديه لكنة؟ هل تتذكر أي ندبة على رقبته أو يديه؟ هل كانت الضربات بكف اليد أم بشيء ما؟ ما نوع السجائر التي دخنها؟ هل رأيت علبة السجائر؟ هل تحدثت مع شخص آخر محبوس في الزنزانة؟ ما عدد قضبان النوافذ؟ كم عدد أكياس الطمي؟

كان "روبرت" خائفًا من الأسئلة، راقدًا في ظلام غرفة المستشفى البهيم حاول صياغة إجاباته مقدمًا، وضجيج الطائرات يهز الزجاج، وعندما هبطت طائرة هرقل رباعية المحركات شعر بصدره يرتعد.

لم يخرج من السرير في تلك الليلة الأولى، بعد تناول وجبة جيدة وعبوتين من الكوكاكولا تسلى بالتجشؤ وعد البلاطات البيضاء في الجدران، توقع أن يوقظه عند الفجر أشخاص ودودون يرتدون الزي الرسمي ويقتادونه إلى حجرة المكتب، حيث يكتبون كل ما يقوله، ولكن "روبرت" لم ينتظر حتى يوقظوه، نهض في أول ضوء، ارتدى ثوب المستشفى، ومشط شعره، وجلس على السرير ينظر إلى الباب، بعد ساعة بدأ في المشي ذهابًا وإيابًا وهو يعد بلاطات الأرض. كانت مقابض الباب ثابتة وجامدة، وتصدح الموسيقى من

Twitter: @ketab_n

الممر، ويعلن مذيع محطة إذاعة القوات المسلحة الوقت بالضبط في فواصل كل نصف ساعة، كان البرنامج من طلبات الجنود من الموسيقى وأخبار من "الجبهة الشرقية". تساءل "روبرت" ما إذا ما كانت برلين تُعتبر ساحة المعركة الغربية، حيث يحدث نوعًا مختلفًا من الحرب، وأخيرًا علامة: خطوات قادمة نحو الباب، وصمت الراديو، وظل صامتًا لعدة دقائق، ثم عاد مرة أخرى بصوت أعلى مَن ذي قبل، وصوت الخطوات مرة أخرى، فكر أن المزلاج سوف يصدر صوت صرير في أي لحظة الآن، قائلًا لنفسه لا بد أن الراديو قد توقف حتى يمنح الطبيب بعض من السكينة خلال جولاته الصباحية، كانت غرفة روبرت الأخيرة، في نهاية الممر، لذا يمكن غفران حدوث تأخير بسيط، نظر من ثقب المفتاح، والعرق يغطي يديه، سمع خشخشة المفتاح في القفل.

الآن فقط يدرك روبرت أنه كان محتجزًا تحت نوع من الاعتقال المؤقت؛ ظِلّ الجندي الذي شاهده يقوم بدورية كل عشر دقائق أثناء الليل عبر خصاص الستائر الشرائحية كان هناك لأجله، وعندما سمع صرير المعدن غير المشحم، قرر ألا يسأل عن سبب احتجازه تحت قفل ومفتاح، وحراسة، قائلًا لنفسه: إن كل ذلك جزء من الإجراءات الطبيعية.

اعتقد "روبرت" أنه بعد الاستجواب، وتقديم تقرير دقيق، سيكون كل شيء على ما يرام، سوف يمنحونه أجر نصف عام مقدمًا وسيعود إلى

Twitter: @ketab_n

الأريزونا في اليوم التالي على متن أول طائرة، أو ربما سوف يسمحون له بالهبوط في مطار نيويورك، وبعد عدة أيام من إنفاق المال في بيج آبل سوف يتوجه عائدًا إلى "جينسفيل" بولاية جورجيا، ولكن مفاجأة أخرى كانت في انتظاره.

بدلًا من الطبيب المبتسم، والممرضة الجادة، دخل ثلاثة أشخاص الغرفة يرتدون الملابس الواقية ونوعًا من أقنعة الغاز التي كان "روبرت" قد رآها مرة من قبل أثناء مبادئ تدريبات الحماية، كان أحدهم يحمل صينية عليها شريحة بفتيك كبيرة، وسلطة طماطم وصلصة مشروم؛ وكانت الصينية الثانية محملة بزجاجات الأدوية وعدة محاقن زجاجية مملوءة بسائل مزرق اللون، كان الضفدع البشري الثالث لا يحمل أي شيء، أخذ الكرسي ووضعه بجوار السرير وجلس، تفصدت جبهة "روبرت" بقطرات عرق كبيرة أعلى وجهة الممتلئ بالذعر، والأسئلة، وفي مقدمة خوذة الضفدع البشري رأى "روبرت" شكلًا صغيرًا بأكتاف مقوسة يقبض بعصبية على حافة شرشف السرير، كان ذلك هو نفسه الذي رآه حين حاول تبين بعض الملامح البشرية؛ فم وأنف خلف الزجاج، وطلب صوت مكتوم يبدو وكأنه خارج من حفرة بلاستيك من أحد الزملاء الذين يحملون صينية الخروج وإيقاف الراديو، أوقفوا أغنية (عابر سبيل غريب) في مقطعها الثالث: "ولكن الحقول الجميلة ممتدة أمامي مباشرة. حيث فداء الإلة...".

Twitter: @ketab_n

قطع صمت يصم الآذان ممتلئ بصوت التنفس الاصطناعي عبر المرشحات، تحدث الصوت مرة أخرى:

سيد "دنكان"، لدينا سبب للاعتقاد بأن صحتك ... أقصد... هناك دلائل تشير إلى أن صحتك في خطر شديد.

أومأ "روبرت" للإشارة إلى أنه متفهم، سقطت قطرة عرق كبيرة من أنفه واستقرت على يده، واصل الضفدع البشري:

لا أريد ادعاء أن الوضع خطير للغاية، ولكنني سأقول إنه من مصلحتك – ومصلحتنا جميعًا- أن تقضي عدة أيام أخرى في الحجر الصحي لإجراء مزيد من الاختبارات، وأثق في تفهمك.

لم يقل "روبرت" أي شيء، شمر أكمامه صاغرًا عندما اقتربت الإبرة من الجزء العلوي من ذراعه، لم يستطع التحدث، جسمه كله يرتعد، شعر بموجة باردة تجوب جسده، وبعدها بعدة ثوان طنينًا مستمرًا في رأسه من الحقنة القوية، نصحوه بالاستلقاء والاستراحة، وألا يقلق: فرغم كل شيء، هو على أرض آمنة، كانوا مدركين لمدى الألم والعذاب الذي مر بهما، ولكن كان عليه أن يصمد لفترة أطول قليلًا، تساءل "روبرت":

ما الذي تعنيه "أطول قليلا"؟

Twitter: @ketab_n

لم يشكّ أنها تعني سنوات، أو عقودًا من حياته في منطقة نائية مظلمة في أوروبا، كان يحدق في السقف وينتظر الدافع لفعل شيء معقول: الصراخ بخوف والقتال على حافة هذه الهاوية المشئومة، وفي هذه اللحظة أصبحت حياته الحالية، وكل ما سوف يأتي جلطة سوداء صغيرة محاصرة في مجرى دم مصير لا يمكن التنبؤ به.

بعدما تناول طعامه حاولوا جاهدين إقناعه أنه لا يزال في صحة جيدة، عندما سئل عن عدد الشهور والأيام التي قضاها، اهتز أحد الضفادع البشرية بضحك غير طبيعي، لاحظ "روبرت" شفاهًا رفيعة، وعيونًا زرقاء واسعة خلف الحاجب الزجاجي، سألوه عن الأشخاص الذين التقاهم، عن أيديهم، ولون بشرتهم، ومظهر وجوههم. وعندما وصل "روبرت" إلى الجزء الخاص بالزنزانة عفنة الرائحة الموجودة تحت الأرض، والجسم المغطى في البطانيات، صفع الطبيب ساقه ليبدأ زميله في تدوين الملاحظات عن لون البشرة، والتقرحات، وحالة الأطراف، والوجه، والشعر، والروائح، وأي سعال؟ كتبوا كل التفاصيل التي تذكرها "روبرت"، موميئين بفارغ الصبر، وأعطوه حقنة أخرى، وأخذوا عينة من غشاء أنفه المخاطي.

أحضر الطبيب إلى "روبرت" عشاءه بنفسه، وعرض عليه سيجارة، وهذه المرة جلس عند قدم السرير، وقال:

"إن فترة حضانة المرض قد تستمر لسنوات".

Twitter: @ketab_n

وكانت المعلومة التالية:

تنص القواعد على أن لا يمكنك العودة إلى البيت قبل أن تُعالج، حتى لا تعرِّض حياة المواطنين الأمريكيين إلى الخطر.

كما أُخبر "روبرت" أنه:

"تقول اللوائح الداخلية إنه لا يمكنك البقاء في القاعدة، وسوف يغطي الجيش تكاليف علاجك".

ملأ الطبيب الفجوات بين هذه العبارات بالحديث عن التغيرات المناخية العالمية، وعن امرأة كانت في انتظاره في "سياتل"، ولا يمكنها الاستمرار في الانتظار وحدها، وعن الوجبات الباردة في الميدان، والتي رافقتها جميعًا الألحان التافهة لإذاعة القوات المسلحة، وأضاف:

"آخر مستعمرة جذام في أوروبا تقع في جنوب شرق رومانيا".

Twitter: @ketab_n

الفصل الرابع

كان الصباح الذي خبأت فيه هدية عيد ميلادي- والتي كانت جواز سفر روماني ملفوف بورق مشمع- هو أول مرة أفكر فيه في الهروب، وضعت علبة النرجس أسفل حافة النافذة ببطء وهدوء حتى لا يستيقظ روبرت المستلقي في مواجهة الحائط - بينما يتموج عمود دخان من المصنع أعلى السهل مثل علامة استفهام عملاقة حتى حولته الرياح وأشعة شمس الربيع القوية إلى نهر رمادي متدفق بعيدًا إلى الغرب.

كان روبرت يتحدث في نومه ضاغطًا وجهه في الوسادة، وعندما تقلّب ترك بقعًا زاهية من الدم، إن معاناة جميع مرضى الجذام تقريبًا من الأرق حقيقة معروفة، وحتى في مراحل المرض الأولى، أي وضع غير مريح للجسد المنكوب، أعتقد أننا لن نجد الراحة إلا إذا تمكنا من النوم واقفين

Twitter: @ketab_n

مثل السائرين نيامًا، في أيامنا السعيدة كان عدد قليل منًّا يجلس دائمًا على حافة النافورة القديمة في ساحة مستعمرة الجذام، متعبًا بسبب قلة النوم، وكنا نستلقي في ضوء شمس الربيع محلقين على حدود الوعي، وكانت مثل هذه المشاكل غريبة على روبرت، الذي كان ينام بعمق الآن، ويشخِّر مثل الفيل.

جذبت كرسيًّا بجوار النافذة، من هناك يمكنني رؤية المكان في الجدار حيث خبأت هدية عيد الميلاد التي منحها لي روبرت، كان لدي شعور أن معالم الحجر واضحة للعيان، وأنه كان يتحرك من تلقاء نفسه، كنت أخشى أن يسقط في أي لحظة، ويرفرف جواز السفر بعيدًا في السماء مثل الطيور السوداء، تمطى صديقي صانعًا جلبة استيقاظ ممتدة، اتكأ على الحائط وأخبرني أن "بول مكارتني" قتل "جون لينون" بضربة سكين واحدة، ضحك ساحبًا سبابته عبر حنجرته وقال:

"ألا تستطيع "شراء الحب من أجلي".

واستمر في دندنة اللحن.

كانت الصفحة الأولى من جواز السفر تشغلها الصورة التي التقطها الجندي الروماني في محطة الإسعافات الأولية الصغيرة عندما كان يعدّونني لمستعمرة الجذام، كان اسمي الجديد "أندريه ستانسكو"؛

Twitter: @ketab_n

تحتها كان رقم الهوية، والشعار الروماني وتوقيع مسؤول مخولًا في بوخارست. لم يظهر الوجه أي علامات للمرض، ولكن كانت الصورة بالأبيض والأسود تشع خوفا وارتباكا، وكان هناك تألق غريب في مقلتي العين الناظرتين بعيدًا جانبًا. في ذلك الوقت كنت لا أزال أحمل ختم ذلك العالم الآخر، سنين من الحياة المريحة نسبيًّا التي تغرق ببطء في الرمال المتحركة من النسيان، داخلًا مستنقعات المستقبل.

كلما تذكرت مدن طفولتي، التمتمات السوقية بلُغتي الأم أوالنظر إلى خريطة أوروبا القذرة المجروفة من قاع مستودع قمامة مصنع الأسمدة، شعرت بحنين مفاجئ إلى الماضي أدمعني، حزمة من الألوان، وآثار من الروائح المألوفة والأصوات، الأصوات، الأصوات. ولكن في السنوات القليلة الماضية، أصبحت ذكريات من هذا النوع تثير عاطفة أقل فأقل، وتبدو بعيدة جدًّا عن أن تخطو بفخر إلى داخل مسرح عقلي وتطرح عرضها، إنها ببساطة تتسكع في أفكاري مثل القطيع الأخير المكون من 36 حيوان بيسون في غابات شمال بولندا: تراهم إذا بحثت عنهم فقط، سياج من الأسلاك قوية يحميهم؛ ويختفون واحدًا تلو الآخر في الوحل، أكوام لا قيمة لها من اللحم القاس، إنهم ينقرضون، إلا أن جواز السفر أجبرني على إعادة التفكير في كل شيء، عندما فتحته شعرت أنني كنت أتصفح في دفتر سميك مليء بالشروط والأحكام وليس عشرين صفحة فارغة من اللون الأزرق الرسمي. جلست على سريري، بينما استيقظ روبرت، قال لي: صباح الخير

Twitter: @ketab_n

وجلس على كرسي بجوار النافذة، كان "زولتان" يتسكع في الفناء ويتمتم هامسًا، لوّح له "روبرت"، وأجابه متأففًا بثلاثة أصابع متيبسة من يده اليسرى، كان لديه بقع حمراء كبيرة على جبهته وفروة رأسه مما جعل صلعته المجعدة بالجذام تبدو كخريطة قارّة منسية مجسمة.

انتظرت أن يذكر "روبرت" جواز السفر، ويسأل ما إذا كنت أخفيته، لكنه كان يجلس هناك هادئًا مستندًا بمرفقيه على حافة النافذة ويشاهد "زولتان" يمشي في دوائر على الأرض الجافة حول النافورة، شم النرجس وداعب بتلاته بأطراف أصابعه، وفجأة وضع يده على أذنه اليمنى وبيده الأخرى علامة بأنني يجب أن أكون هادئًا، كان يحاول التركيز على صوت لم يلتقطه سمعي بعد، سألني - واضعًا إصبعه على شفتيه مرة أخرى -:

"هل تسمع ذلك؟".

لبضع لحظات لم أستطع تمييز أي شيء ما عدا همهمة الأشجار الثابتة، وصوت خدش خطوات "زولتان" المتكرر باضطراد.

وكصوت طائرة بعيدة تقترب أكثر فأكثر من المَدرَج، بدأ الهواء في الاهتزاز، وامتلأ بمئات الأصوات، كان هناك غناء ولحن إنترناسيونال" المثير مختلطًا بهتاف العمال بالرومانية، الذي تعرفت فيه على شعارات مثل، "يسقط الدكتاتور"، "حرية"،" نريد حقوقنا"، "المساواة". أوقف

Twitter: @ketab_n

"زولتان" خطوه المتسارع، ومشى بتثاقل إلى السياج بأسرع ما يستطيع جسمه تحمله، من نافذتنا التي صنعناها من لافتات معلقة على أعمدة طويلة، أعلام رومانية ثلاثية الألوان بفتحة في المكان المعتاد لشعار الدولة ونهر من "الأفرولات" الزرقاء تثير سحابة من الغبار، كما انضم العديد من المزارعين الذين كانوا بالخارج في الحقول إلى الطابور بالإضافة إلى جرارين عاليي الصوت، تسلقهما العشرات من المتظاهرين كالنمل، وتوجه الآن هذا الجيش المرتجل إلى القلعة التي كانت مصنعًا، كان كل شيء يبدو كما لو كان تنقيحًا عصريًا لقصة "روبرت" عن مدينة "سينسوتريجيوري" والمعركة الدامية التي شهدتها جدرانها.

توقفت المظاهرة كلها للحظة للهتاف إلى سيارة التغطية التي وصلت من محطة التلفزيون الوطني الروماني، رغم أنها وقفت انتظارًا على مسافة آمنة، وصعد المصور على سقف السيارة المتهالكة حيث صور الأحداث التي كانت تتابع.

كما صوروا مستعمرة الجذام تصويرا حيا أيضًا، وتجمع الجميع في نوافذ الطابق الثاني كي يحصلوا على رؤية أفضل للأمور، يتعرج الطريق إلى المصنع وراء حقول الذرة، وعبر خشب "البتولا"، ويرسم نصف دائرة واسعة حول بعض أعمدة خط الكهرباء قادمًا على بعد بضعة مئات من الأمتار من سياج مستعمرة الجذام، ثم يبتعد مرة أخرى نحو المصنع،

Twitter: @ketab_n

مارًا بمستودع تفريغ القمامة على الطريق، وعلى سطح مخزن كبير لمعت العديد من خوذات الشرطة؛ وأشار ضابط بهراوته، ونشر رجال شرطة مسلحون بالبنادق في الزوايا.

أمسك "زولتان" بالسياج وقفز صعودًا وهبوطًا، ولعن "تشاوشيسكو" وانضم إلى الصخب، مغنيًا عدة مقاطع شعرية من "إنترناسيونال"، وكلما اقترب النهر الأزرق من مستعمرة الجذام، أصبحت صرخات "زولتان" أعلى وأكثر حماسًا، وعندما أصبح العمال في أقرب نقطة من مستعمرة الجذام، وتمكنت عيون روبرت الحادة كالنسر من تبين قذارتهم، ووجوههم غير الحليقة، وشاهدنا جميعًا "زولتان" يقفز عبر السياج، ويتعثر في السلك ويسقط أرضًا، ثم يسوي رداءه الكتاني، ويرتدي غطاء رأسه ويسير نحو العمال بأذرع مفتوحة للانضمام إلى هتافهم وغنائهم، وعندما اقترب منه الحشد هدأ قليلًا. وبدأت العيون المتطفلة في التحديق إلى قلعتنا المُعدِيَة، بيت اللعنة الذي يومض كالسراب بين جميع مشاكلهم الاجتماعية.

رأوا "زولتان"، وخيم الصمت المطبق، ولكن الرجل العجوز لم يثبطه حشد العيون المشدوهة، ولا الهياج الشرس، والصرخات الأكثر تواترًا عن قبل، وكان مقتنعًا بالاستعداد الودي لدى المعذبين الذين كانوا ينتفضون ضد الطاغية.

حَلَّقَ أول حجر من وسط الحشد وسقطت على بعد عدة أمتار أمام "زولتان"، وكنت أنا و"روبرت" قد قفزنا بالفعل عبر السياج ونسرع

Twitter: @ketab_n

نحوه؛ بينما لوح بذراعيه مدندنًا بنفس الأغنية، وما زال لا يريد تصديق أن "سجناء الجوع ومستضعفي الأرض" لا حاجة لهم إلى حليف مجذوم ملفوف في خرق الكتان؛ وأنه بالنسبة لهم رجس من عالم آخر. صفرت المزيد من الأحجار عبر الهواء، بصوت خافت أولًا، ثم بصوت أعلى وأعلى، ثم تعالت صيحات: "نجس. نجس"، ذهلت لسماع هذه الصرخة القديمة موجهة إلينا الآن، ونحن ننتزع "زولتان" من ذراعيه ونجرّه إلى الخلف، وسرعان ما أصبحنا خارج نطاق الأحجار.

صرخ "زولتان"، وبكى بصوت عالٍ، وتمتم من خلال دموعه: "نجس. نجس"، بينما كان يتطلع إلى وجهي ووجه "روبرت" تباعًا، وحدق في مستعمرة الجذام، والأشجار والصليب الخشبي القديم على واجهة المبنى، وأجلسناه بالقرب من النافورة. وجاء "مستيسلو" بأبريق من الماء، ووضعه على الأرض، واختفى مرة أخرى في الفجوة السوداء التي كانت المدخل الرئيسي. لم يخرج أحد، باستثنائه، كي يتحقق مما يحدث، تخيلت أن الجميع رأوا ما حدث من فوق، ويجلسون الآن في وحدة في غرفهم الظليلة، يستأصلون تلك الكلمات الطاعنة مثل السيوف من قلوبهم، وكان ذلك مجرد تأكيد آخر على أننا لا ننتمي إليهم، وشهادة على صحراء المرض والخوف والقبح والتشوه الشاسعة التي تفصلنا – أبناء الجذام- عن بقية العالم؛ وكل من يحاول عبورها سوف توقفه هذه الأرض القاحلة. ومع ذلك أصبح "روبرت" مقتنعًا أن الأمر يستحق المحاولة.

Twitter: @ketab_n

انتقل غناء العمال بعيدًا، صعدنا بـ"زولتان" إلى غرفته ووضعناه على سريره، توقف المحتجون الآن أمام صورة عملاقة لـ"تشاوشيسكو"، وكانوا يلقون عليها طلاء أحمر وكتلًا من الطين، فبدت من بعيد كما لو كانت الصورة على الجدار الخشن مليئة بطلقات الرصاص والدم متدفق منها، وتعلو الهتافات بعد كل ضربة، وسرعان ما أصبح الوجة مغطى بفوضى من الشوائب الحمراء والسوداء مع التصاق كتل من الطين بها تذكرنا بوجه المجذوم في المراحل المتقدمة من المرض.

يجب عليّ القول أن "روبرت"، البرجماتي الأمريكي للنهاية، نظر إلى الأحداث بعاطفة وترابط أقل بكثير، سوف تنتهي حكايته لحادثة "زولتان" والمتظاهرين كي تكون أكثر عقلانية؛ وربما أقرب إلى الواقع، ولكنها أقل إثارة للاهتمام، أعتقد أن بهذه الكيفية يعمل العالم والأدب أيضًا: يكتب القصص دائمًا ويتذكرها أشخاص مثلي، وليس من شاكلة "روبرت"، و"زولتان"، و"مستيسلو".

كنا لا نزال جالسين في غرفة "زولتان" عندما سمعنا الطلقة الأولى من اتجاه المصنع، في تلك اللحظة تحول الهتاف إلى صراخ متنافر، واندفع طابور من سيارات الشرطة نحو مصنع وسط سحابة من الغبار، وغطى سفح المدخنة وساحة المصنع ضباب ناعم من الغاز المسيل للدموع الذي ظهر منه العمال المرتبكين مثل النمل، بينما ينظر إليهم وجة الديكتاتور

Twitter: @ketab_n

المصاب شذرًا وسط دوامات الدخان، أسقط وابل الرصاص المنطلق من سطح المخزن عاملين بأفرولات، كانا قد ألقيا حجارة على القناصة، توقفت العربات فجأة على بُعد بضعة مئات من الأمتار من المصنع وانطلق خارجًا منها شرطة مكافحة الشغب مدججين بالسلاح ومجهزين بأقنعة الغاز، تقدموا بخطوات ثابتة من بقايا البروليتاريا الساخطة، ودوى طلق ناري مقابل كل حجر ضرب دروعهم الحديدية.

ألقى أشجع المحتجين بأنفسهم على طوق الشرطة الجاهز للمعركة وهم يطلقون صرخات الكراهية، انفتح باب الحديد لفترة وجيزة واختفى عامل الشحن تحت الهراوات والبيادات قبل حتى أن يتمكن من إطلاق صرخة، كما فر معظم العاملين عبر حقل القمح الواسع جنوب المصنع، ولكننا استطعنا من نوافذ مستعمرة الجذام رؤية أنهم كانوا متوجهين مباشرة نحو الزي الرسمي المنتشر حول صوامع الحبوب الطويلة القائمة في نهاية الحيازة.

تبدّد الدخان سريعًا، يستطيع "تشاوشيسكو" ملاحظة الوضع الآن دون عوائق، تناثرت سبع أو ثمان جثث حول فناء المصنع، أولئك الذين لم يتمكنوا من الفرار كانوا راكعين الآن وبنادق برميلية مُدربَة على رؤوسهم، ووقف ضابط الشرطة على غطاء محرك السيارة الجيب، وأعلن عبر مكبر الصوت أن كل الذين قبضوا عليهم سوف يعتبروا مجرمين لأنهم حاولوا

Twitter: @ketab_n

تهديد سلامة جمهورية رومانيا الاشتراكية، ونظامها الدستوري، كما أنهم طعنوا في صورة وإنجازات الرئيس، وحاول العديد من العمال النهوض والحديث، ولكن كانت أعقاب البنادق نصف الأوتوماتيكية أسرع.

كما رأى "روبرت" أيضًا اثنين من رجال الشرطة يأخذون مصور المحطة التلفزيونية الوطنية إلى خلف المبنى، وصفعوا الرجل المسكين على وجهة عدة مرات، وأخرجوا شريط الفيديو وحطموه على الجدار. ربّت أحد رجال الشرطة على كتفه، وأدرج المصور شريطًا آخر، وأصبح كل شيء هادئًا مرة أخرى، ربما كان العمال قادرين على سماع أزيز الكاميرا، والانحلال البطيء لشريط الفيديو السليولويد الذي يلتقط وجوههم الخائفة الآن،

أشار الضابط بهرواته إلى المصور الذي كان من المفترض أنه يصور الفيلم الآن، تابع الهدف طائعًا والعين الزجاجية الكبيرة تمنع رؤوس المجرمين المحنية، وعلق "روبرت" لاحقًا على سخرية الكلمة المريرة لعدسات الكاميرا الزجاجية، "الهدف"، كونها نفس الصفة التي تصف حالة أو أحداثًا حقيقية، كان مندهشًا من مثل هذا التفاوت الفجّ، وذكر العديد من الأمثلة المماثلة التي لم أعد أتذكرها.

نام "زولتان" أخيرًا، كتل سميكة من الدم تسيل من أصابع يده المعلقة بالسرير، في درجه وجدنا الكتاب المقدس، وأمبولين من عقار "ثيوسيميكاربزون"، ومحقن. حقن "روبرت" الدواء في شريان "زولتان"

Twitter: @ketab_n

المتورم، حيث انحنى على الجسم العجوز، وشم الرائحة الفظيعة التي تحمل شهادة أن الجذام يسدد ضرباته الأخيرة، كان المرض هائجًا الآن في أنسجة الجسم العجوز المتحللة، لقد استطاع زولتان إخفاء تقدم المرض بردائه الكتان، متحملًا الألم في صمت، وبجانب المحاقن كانت هناك صورة شاحبة، وفي زاويتها اليسرى السفلية كان الطفل الصغير ممشط الشعر عريض الابتسامة بينما أضواء بودابست تسطع في الخلفية مُعرفًا بأنه "إينجمار زولتان" في يوم 13 مايو 1911، نظرنا إلى ذراعي الطفل المرهفتين، لاحظنا لعبة خشبية معلقة من يد واحدة، بينما تبدو أصابع الأخرى ملتوية؛ ربما كان الصبي مشغولًا بأظافره، حتى بالنظر لحالة هذا "الطفل" اليوم، كان هناك تشابه واضح: الجبهة الواسعة، والعيون الكبيرة الداكنة، والسيقان الطويلة، وعظام الوجنة البارزة، كانت نفسها في "زولتان" المجذوم، وضعنا الصورة مكانها، ومشينا برفق خارج الغرفة، وكلانا يفكر في الطفل المستلقي كشبح يوشك على موته، وتناسخ الكبار.

انتظرتْ مجموعة بقيادة "مستيسلو" خارج الباب، وسألونا عن حالة "زولتان"، بعد إقناعهم بأن الولد العجوز سيكون على ما يرام، ذهبنا جميعا لتناول طعام الغداء، رشفوا حساءهم بصوت عالٍ بدون تحدث، كانوا ينتظرون مني ومن "روبرت" شرح أحداث الصباح الصاخبة، رنّت أدوات المائدة بهدوء تكريمًا للعمال الذين لقوا مصرعهم، عبرت صفارات سيارات الشرطة مستعمرة الجذام على الطريق، اهتزّ زجاجنا من ضجيج

Twitter: @ketab_n

الشاحنات الممتلئة بالمتظاهرين المعتقلين، لذا لم نسمع صوت الخطوات في الباحة، وكسر باب كنيسة المعمدان الخربة وإغلاقها العالي، والمحادثة الخائفة بين اثنين من التعساء الذين هربوا من الهراوات.

انفصلنا، وانطلقنا إلى غرفنا بعد غداء مُتبَّل بتأملات "روبرت" بشأن الأزمة العالمية للإنسانية، والشر الذي يؤثر على الجميع، وتشوه الأفكار الشيوعية في بلدان أوروبا الشرقية، انصرف كل منا في الاستغراق في التفكير، والإعجاب ببلاغة روبرت". كانت بعض جمله الطويلة لها معنى فعلًا، مثل ادعائه أن مصير الحضارة كان مرتبطًا ارتباطًا وثيقًا بخمسة في المئة من أشخاص موهوبين لديهم رغبة ودافع لاستغلال حياتهم من أجل مقاومة الإغراءات المعروضة عليهم من الجانب المظلم من "وجودنا الكلي"، كما أسماه "روبرت".

استلقيت محدقًا في السقف، هبط "روبرت" كي يقرأ في الفناء، تعقدت كل الأحداث في عقلي مثلما يتشابك شعر فتاة طويل بسبب الرياح، ولم أتمكن من النوم، واليوم الذي بدأ بالنرجس الأصفر أصبح دوامة من القلق اقتحمت الحياة اليومية المستقرة لمستعمرة الجذام في أوروبا، رغم إشراق شمس الربيع المعتدلة، وروائح الخضرة الحلوة تملأ الجو، لم يخرج أي شخص آخر، لم يكن أي صوت في الفناء إلا صوت تقليب "روبرت" صفحاته، وخشخشة طيور الشحرور في الأدغال قرب السياج، في بعض

Twitter: @ketab_n

الأحيان، تأتي صفارات سيارة الشرطة من بعيد مثل عواء الريح ثم سرعان ما تتحول إلى آلاف الهمسات الزجاجية.

تقف الكنيسة المعمدانية المتداعية على أساس من الطوب القديم المعاد استخدامه، لذلك كان من السهل على آثار الزمن تحويل الكنيسة إلى كتلة متدهورة من مواد البناء المُعرَّضَة للانهيار من تلقاء نفسها، نظرت إليها في الصباح بعد ليال شتوية عاصفة، متوقعًا أن أراها تتحول إلى غبار أمام عيني، ولكنها نجت، كانت تبدو كما لو كان صليب حديدي صدئ يخرج من المذبح وحتى عبر لوحات السقف هو العمود الفقري في إبقائها منتصبة. وكانت "مارجريتا يزبوفيتش" تعتني بالمبنى قبل أن تنسحب إلى سباتها الشتوي دون عودة. وتتذكر "زولتان" الورود شاحبة الحمرة الرائعة وزهور ليلك الأدغال الصغيرة وألواح الزجاج الصافية ناصعة النظافة في النوافذ المستديرة الصغيرة وروائح البخور التي استلمتها "مارجريتا" في طرود الصليب الأحمر، وكانت تعرف عدة فصول من الكتاب المقدس من الذاكرة، وإذا كنت تمشي في الفناء يمكنك أن تسمع تمتمة لطيفة من الكلمات المقدسة التي تملؤك بالسلام، ثم بآخر ما تبقى من قوتها تغلق الأبواب بالسلاسل، وتزحف تقريبًا إلى غرفتها، التي لم تظهر منها حية مرة أخرى.

Twitter: @ketab_n

لم تعد تلك السلسلة معلقة في مكانها، وتعكر سلام الكنيسة المعمدانية بهمسات شاردين مذعورة تتسع حدقتا عينيهما في خوف كلما ملأت صفارات عربات الشرطة الجو، مفترضين أن الشرطة تطاردهما ومصممة على عدم التخلي عنهما بسهولة.

جالسًا على حافة نافورة، كان "روبرت" أول من لاحظ الصرير المميز لألواح الأرضية القديمة، صوت لا يمكن أن يكون ناجمًا عن الرياح، يأتي من الداخل، من قلب الظلام المستمر لعشر سنوات الذي حافظ على التذكارات العزيزة لإيمان "مارجريتا" الذي لا يتزعزع في الله، ضم "روبرت" الكتاب المقدس إلى صدره، وفي تلك اللحظة أراد أن يركع أمام المذبح ويشعر بتلك البرودة الخاصة التي تمتلكها الكنائس فقط، لكن الأبواب بدأت في الفتح حتى قبل أن يمسها، راقب صديقي في دهشة، مستعدًا لتصديق أنهما انتقلا فعلًا بقوة إلهية، برزت رأسان بكتلتين من الشعر الأسود الكثيف، واحدة فوق الأخرى، وعيونهما حمراء منتفخة من الغاز المسيل للدموع، ويقول سفر الملوك الثاني:

وقال بنو الانبياء لاليشع هوذا الموضع الذي نحن مقيمون فيه امامك ضيق علينا. 2 فلنذهب الى الاردن وناخذ من هناك كل واحد خشبة ونعمل لانفسنا هناك موضعا لنقيم فيه.فقال اذهبوا.

Twitter: @ketab_n

"وقال وبنو الأنبياء لأليشع: هو ذا المكان الذي نسكن معك، فهو ضيق جدًّا بالنسبة لنا. دعنا نذهب، ونحن نصلي إليك، إلى الأردن، وأخذ من هناك كل واحد خشبة، ودعونا نجعل لنا مكانًا هناك، لنقيم فيه. فقال: اذهبوا".

كما برزت أيضا أكتاف في أفرولات زرقاء.

أطللت من بين النرجس على حافة النافذة ورأيت أيديهما تشير بفزع نحو "روبرت" كي يقترب، ثم ألا يقترب خطوة أخرى، أشارا بجسديهما، قبضا أيديهما، ولويا وجهيهما، كل ذلك لشرح أنهما يريدان البقاء هناك في الظلام. أومأ "روبرت" ليوضح لهما فهمه، قدم لهما الكتاب المقدس للقراءة، وللتخفيف من حدة الخوف والانتظار المؤلمة، لكنهما لم يريدا أخذه، إنهما في حاجة إلى سقف الكنيسة المعمدانية المتهالك فقط؛ لأنهم يعتقدان أن الشرطة لن تبحث عنهما في هذا المكان اللعين.

في وقت مبكر من المساء وصلت سيارة دورية بأضواء ساطعة عند البوابة، كنت جالسا مع "روبرت" على سريرينا، نناقش مرة أخرى أحداث الصباح، اتهم "روبرت" الشرطة بالوحشية الكامنة، ولكن كان يعتقد أيضًا أن العمال بدائيون في التعبير عن سخطهم، حافظت على رأيي أن الاحتجاج الجماهيري هو السبيل الوحيد لكسب الاهتمام والوقوف ضد المعاناة، لكنه رد عليّ أنه لا يعكس إلا نوعًا مشبوهًا من الشجاعة الجماعية العاجزة عن التعبير عن أي هدف عقلاني، ناهيك عن

Twitter: @ketab_n

تحقيقه، نادى ضابط شرطة لا يجرؤ على تجاوز السياج من خارج البوابة، وطالب بأن يخرج شخص له، ولم يتوقف عن الضجة إلا بعدما ظهر له اثنان عند المدخل، لم يبذل أي مجهود في إخفاء مسدسه الكبير ولكن أبقاه عالقًا في سرواله، ومقبضه ينغز في كرشه المتدلي.

" هل نعرف ما حدث؟".

"مجموعة من المجرمين حاولوا تدمير المصنع، جميعهم تقريبًا أُلقي القبض عليهم، ولكن العديد منهم لا يزالون طلقاء، هل رأيناهم هنا بالقرب من المبنى؟ أو في المبنى؟".

هذه الفجوة تبدو مكانًا مثاليًا للاختباء، أصبحت أكثر خطورة بكثير الآن لأن الهاربين طليقين، سنكون في خطر داهم. والمرض، وكان معديًا ...

تحدث دون أن يسمح لعينيه أن تلتقي بأعيننا، كما لو كنا " سوف نحولهم إلى حجر، أو أسوأ من ذلك: إلى مجذوم!

كان زميله يجلس في السيارة يلمّع مسدسه على كمه، فكرت في التعيسين في الكنيسة خلفنا الذين كانا يرتجفان مثل الأرانب في المصيدة، ربما كانا يرتعدان تحت الألواح الأرضية الرطبة، يتخيلان ما يمكن أن يحدث إذا تم القبض عليهما، فطوال حياتهما سمعا حكايات عن

Twitter: @ketab_n

سراديب الموتى سيئة السمعة الموجودة في مقرات الجهات الأمنية في العاصمة؛ وعن أساليب التعذيب التي خلفت ضحايا تتغوط دمًا لبقية عمرها، ولم يكونا يرغبان في ذلك المصير.

خطًا "روبرت" خطوة متشنجة نحو السياج، فقفز ضابط شرطة إلى الخلف خائفًا، متناولًا مسدسه، وعندما بصقتُ بعفوية كتلة كبيرة من البلغم على الأرض، أخَذَ زميلُه خطوة أخرى إلى الخلف، خوفه شجعنا، أدركْنا أنه لن يأت إلى أي مكان بالقرب منّا، كان المرض هو ما عرقله. تطلع إلى الأضواء الساطعة في النوافذ لبضع ثوانٍ ثم عاد إلى السيارة مزمجرًا:

"اللعنة على المجذومين".

أو شيء من هذا القبيل، وردّ "روبرت" بشتائم نابية بالعامية الأمريكية مليئة بـ"التعبيرات الجنسية"، وغير مفهومة البذاءة. أصدرت العجلات صريرًا، ورشّتنا بالطين، واختفى الضوء الوامض الأزرق على الطريق، منيرًا أوراق شجر الأدغال النضرة.

تبادلت و"روبرت" نظرات مبتهجة بانتصارنا، لم تكن مقاومة خبيثة لقوة القانون المتجبرة بقدر ما كانت رغبة في أن نكون جزءًا من شيء موجود وراء السياج، لا أعتقد أن رغباتنا المشاكسة وإيماءات التمرد ضد ممثل صغير لنظام "تشاوشيسكو" كانت مختلفة اختلافًا جوهريًا عن خروج

Twitter: @ketab_n

"زولتان" لمقابلة المحتجين، جميعنا يريد الاتصال البشري، حتى لو كان صراعًا من أجل كسر هذا السياج الذي كان أعلى كثيرًا من الذي يحيط بمستعمرة الجذام، ولو للحظة واحدة، ولكن كل شيء انهار على الستار الحديدي، الذي كان الجذام يقيمه - مثل تاجر مخلص - حول اسمنا الوضيع لآلاف السنين، يمكنني التعامل مع هراوة ضخمة على أنفي أفضل من المعتاد، "اللعنة على المجذومين"، كنت أفضّل أن يسحب الشرطي البدين مسدسه ويمنحني طلقة إنسانية كبيرة من الرصاص.

في نظر مجتمعنا المجذوم كنا أبطالًا، عندما غرف "سيون" الحساء لتناول العشاء زيَّن أطباقنا بأكبر قطع من البطاطس المسلوقة، وكجائزة منحونا علبتين من الأناناس من مخزن المطبخ، ولكن لم يذكر أحد الكنيسة المعمودية والهاربين، وماذا ينبغي لهم؟ وكان صمتهم وسيلة لإخبارنا أن ذلك من شأننا، وأنهم لا يريدون الرجال داخل مستعمرة الجذام. باستخدام سلطتي، قررت أنني سأسمح للعمال بالنوم ليلًا في المبنى، رغم قلقي من أن هذا قد يؤذي نفوس المجذومين الحساسة، وأن وجود أصحاء قد يكدرهم ويضعهم في مزاج سيئ، ولم أكن أريد تكدير أي شخص، وخصوصًا المسوخ الذين أصبحت أحبهم مع مرور الوقت، أولئك الذين تعلمت أن أكره وبالمثل أنسى الإساءة إليهم.

Twitter: @ketab_n

انتظرنا سيطرة الليل، ثم اقتربنا من الباب المتهالك، وعندما دخلنا أضاء "روبرت" شمعة جعلت وجوهنا الخشنة والمشوهة تبدو أكثر ترويعًا، وجدنا التعيسين مستلقيين القرفصاء عكس بعضهما البعض، ناما بأفواة مفتوحة، صانعين صوت نقنقة غريبة، تعفنت رائحة الكنيسة بسبب عرقهم والرائحة الكريهة للأحذية الطويلة المطاطية المتروكة بجانب المذبح، وارتفعت فوق رؤوسهم النائمة صورة العذراء الطاهرة؛ وأدت الرطوبة إلى تقشر طلاء صورتها، فكرت كم أن العينين لطيفتان، ورفعت الشمعة، فلاحظت على طول الفم المبتسم بُقَعًا من العفن الأخضر، مما يمنح وجهها عبوسًا مثل تعبير الاشمئزاز، تابعت كتفيها وذراعيها إلى أسفل حيث ينبغي أن يلتقيا أثناء حملها طفلها، ولكن في مكان جسد المسيح المبارك أرى الآن رأسين رومانيين، فتحا عيونهما ولمحا آخر ما يريدان رؤيته: سحنتي مجذومين شبحيتين مضائتين بوهج دموي من شمعة مرتعشة، صرخا، مما جعل "روبرت" يتعثر خائفًا، وسقطت الشمعة من يدي لتصبح جزءًا من الظلمة الثقيلة، وللحظة لم يكن هناك إلا الصمت.

متعثران فوق بعضهما البعض، سقط العاملان على المذبح في اندفاعهما للخروج، اصطدما بي وبـ"روبرت" أيضًا، وكل مسحة ضئيلة من الاتصال الجسدي زادت من خوفهما، وعندما وصلا أخيرًا إلى الباب وفتحاه ركلًا، جلسا على الأرض، وبدآ في خلع ملابسهما، كانت عيونهما مليئة بالخوف بينما كانا ينظران حولهما، ومؤخرتاهما العاريتان تتدحرجان الآن في

Twitter: @ketab_n

الرمال، مع كل خطوة نتقدمها يتراجعان خطوتين، مثل سرطان البحر؛ ثم قفزا وبدآ الجري، تابعناهما حتى السياج الذي أزالوه بركلة، ثم واصلا القفز على الشجيرات الصغيرة والبرك، وشاهدنا ضوء القمر الشاحب على ظهرهما المعرق بعضًا من الوقت حتى اختفيا بين جذوع الأشجار الرقيقة في الغابة الصغيرة، فشعرت بنوع من خيبة الأمل المقترنة بالحسد، فكرت أن أولئك الحمقى سوف يتعطفان علينا بالحديث معنا ويبذلان جهدًا لإخفاء الاشمئزاز والخوف من آثار مرضنا المستفزة لهما، وأنهما سوف يضحكان من الإغاثة عندما يريان عبر باب الكنيسة المتهالك أن القادم كان نحن فقط وليس الشرطة، كما شاهدتهما يتعثران ويسقطان، ثم ينهضان مرة أخرى ويجريان أسرع، وددت لو كنت أنا الهارب من الكلاب البوليسية المتعطشة للدماء عبر المستنقعات والأهوار في هذا البلد الكئيب، والمختبئ بين سيقان أشجار "البتولا" والمتنفس رائحة الرعاع النتنة.

قبل الذهاب إلى السرير والسقوط في كوابيس رهيبة مليئة بصور من طفولتي، ذهبت لرؤية "زولتان" مرة أخرى، كان نائمًا ووجهه قبالة الحائط، وذراعاه مضغوطتان بقوة أمام صدره، وهو يلقي نظره خاطفة على الصورة المجعدة مثنية الأحرف كأذن كلب من بين أصابعه، بينما كان درجه مفتوحًا؛ محتفظًا بخواء كئيب من حياة تتلاشى مع الذكريات.

Twitter: @ketab_n

عندما دخلت غرفتنا اعتقدت في البداية أن "روبرت" كان يركع ويصلي، لكنه لم يستدر، ولوَّح فقط؛ ممسكًا بقلم رصاص مبريّ، وخريطة أوربا القديمة منتفخة على الأرض، وكان يتبع الطرق والأنهار، ويميز المدن، ويتجنب الجبال والمدن الكبرى كما لو كان يرسم مسار جيش ضخم. سألته عما يفعله، وفي رده رسم شكلين ثابتين على بُعد سنتيمترين أو ثلاثة شمال غرب بوخارست، بدا كل شيء قريبًا جدًّا، لو أنني وضعت كعبي على سهل "ترانسلفانيا" الواسع وأشرت بقدمي نحو الغرب، سوف تكون أطراف أصابع قدمي في مكان ما بين "بون" و"فرانكفورت"، ولكن إذا أخذت خطوة أخرى أو اثنتين إلى الأمام، فسوف تقف قدماي مرة أخرى بثبات على ألواح الأرضية المتهالكة. هل كان الأمر يستحق اتخاذ خطوة؟ ما الذي سوف تجلبه رحلة إلى أماكن أخرى؟

طوى روبرت الخريطة دون أن يتحدث، وأغرق حفيف ورقها الموسوم بدقة جميع الأسئلة التي وددت توجيهها.

Twitter: @ketab_n

Twitter: @ketab_n

الفصل الخامس

من المستحيل قياس الأضرار التي تلحقها الترجمة السطحية من العبرية للعهدين القديم والجديد بالمجذومين، في العصر الحالي يبدو من العبث توضيح أن كلمة "تسراه" لا تشير إلى المرض الذي تسببه بكتيريا الجذام العَضَوية، وأن الكتاب المقدس لا يعطي حتى وصفًا كافيًا لأعراض مصيبتنا، السِّفْر الثاني من الملوك (5:27)، حيث يشفي اليشع الأبرص، نعمان من سوريا، ويعاقب جيحزي بإصابته بالمرض يقول:

"فبرص نعمان يلصق بك وبنسلك إلى الأبد وخرج من أمامه أبرص كالثلج، وكان هو [جيحزي] خرج من حضرته، أبرص كالثلج الأبيض".

Twitter: @ketab_n

ما الثلج؟ ما القمامة، من الواضح أن ذلك المرض يسبب نقص الصِّباغ - الوَضَح أو البهاق؛ بينما زملائي يعانون من أن بشرتنا تظهر ميلًا معاكسًا أحيانًا، بل ويمكنني تقديم الدليل على ذلك.

في القرون الماضية كانت تلعننا جميع أساليب اللعنات المسيحية، التي أغفلت حقيقة أن المسيحية نفسها كانت المجرم الرئيسي التي تركتنا نتعفن في عذاب، لم يكن سوى الصليبيين، العائدين من حملاتهم في بداية الألفية الثانية، هم الذين جلبوا المرض إلى أوروبا، وسيطر على القارّة أول وباء كبير، والتي أدت إلى أن يصنفنا مجمع "لاتران" الثالث في عام 1179 كـ"موتى بين الأحياء" وأقصونا في مستعمرة الجذام البائسة. إذا كنت تحب الكتاب المقدس، فإنك سترجم المجذومين بالحجارة، وتعلق الأجراس حول أعناقهم: تسلية للملايين، نرتدي صلبان صفراء كبيرة مخيطة على صدرنا الأيسر، وفي بعض المناطق كان لزامًا الصراخ: "نجس. نجس" كلما تحركنا بين أشخاص آخرين.

وكان على المجذومين الذين يجرّون أنفسهم من سوق إلى آخر محاولين انتزاع الصدقات بذل الكثير من الجهد كي تصل أيدي الغرباء إلى جيوبهم، وكان أكثرهم مهارة - غالبًا المتعلمين جيدًا الذين هجرتهم أسرهم وأصدقاؤهم- يستخدمون مهارات رواية القصص، ويتمكنون من جمع عدة عشرات من المستمعين أحيانًا، ولهذا لم يبقوا أبدًا في مدينة واحدة أكثر

Twitter: @ketab_n

من بضعة أيام؛ وتتألف ذخيرتهم من أربعة أو خمسة حكايات، غالبًا أوصاف معارك أو معجزات شهيرة شهدوها على حد زعمهم، وفي بداية العصور الوسطى، أقر النبلاء إلقاء مثل هذه الحكايات كوسيلة هامة للدعاية، وفي بعض الحالات كان وجهاء المدينة، وحتى أعضاء المحكمة، يدفعون إلى المجذومين كي ينتقلوا من بلدة إلى بلدة، ومن مدينة إلى مدينة من أجل نشر قصة معينة وتعزيزها بالمحسنات البديعية والمبالغات، أحيانًا أشعر أنني أفعل الشيء نفسه، كاشفًا الشبكة المعقدة التي نسجتها مستعمرة جذام أوروبا الماضية على مدى سنوات وجودها العديدة، ولا أعرف يقينًا ما المخفي وراء هذه المخطوطات الحزينة التي كتبها الجذام، ولا ما سوف أحصل عليه عندما يظهر جوهر المسألة إلى النور، ربما تعاطف القارئ فقط، أو ربما نفس تعابير الاشمئزاز التي لاحقتنا لعدة قرون، لا يهم ذلك: فالماضي يصنعه تآكل الزمن الجبار، جاء عمال جدد لمصنع الأسمدة، ووجه "تشاوشيسكو" جددوه بالألوان الزاهية، وصنعت الغربان عشها على سطح الكنيسة، ومن النافذة شاهدت عمليات تجميل الديكتاتور الربيعية التي تكمل جمال المناظر الطبيعية الخضراء.

وصلت حزم الصليب الأحمر وفيها كميات كبيرة من الأدوية الجديدة: "الكلوفازيمين"، الذي كنا نتعاطاه عن طريق الوريد، و"إيثيوناميد" في شكل أقراص، وكان العلاج المنتظم بهم مطلوبًا لمدة سنة على الأقل كي

Twitter: @ketab_n

يكون له أي تأثير يذكر، إذا قسمنا الإرسالية إلى أجزاء متساوية، فإنه سوف يستمر حتى أواخر الصيف.

تخلت "مارجريتا" عن نصيبها وكذلك فعل "زولتان"، إنه يتحدث أقل من المعتاد ويمشي باضطراد بالقرب من السياج، محدقًا من بُعد كما لو كان يعلم بالضبط ما الذي ينظر إليه، ولاحظ "روبرت" أن مكانه المفضل كان شجيرة "الخطمي" التي كان يقف إلى جانبها، مداعبًا أوراقها العريضة، ويسحب الأعشاب بتفانٍ من حول الشجيرة، ويزيل الحجارة متطلعًا إلى السماء كما لو كان يصلي من أجل المطر، هو أيضًا أصبح نباتيًّا، يتألف طعامه من عدد من البطاطسات المسلوقة وقطعة صغيرة من خبز الشوفان التي يطحنها بأسنانه المسوّسة.

توقف عن المجيء إلى التجمعات بالقرب من المدفأة وشرب شاي "لحاء الدردار" المرّ، ومسح وجهه من الدم، والقيح، والعرق بخرقة قذرة خشنة، وبدأت أطرافه العصبية في الموت أسرع، ويمكنك رؤيته يركل قطعة صدئة من الحديد بقدمه العارية ويضحك بهيستيريا لأنه لا يشعر بأي ألم، رغم أن قدمه لا تزال تنزف، مسكته مع "روبرت" عندما كان نائمًا، ونظف "سيون" الجرح وضمده، مبديًا مهارات طبية اكتسبها في الجيش الروماني، عقدنا أيدي "زولتان" حتى عاد إلى النوم، ثم غادرنا الغرفة بدون صوت.

Twitter: @ketab_n

في يوم 13 يونيو عام 1989، لم ينزل "زولتان" لتناول طعام الغداء، وكان من المعتاد ألا يصل قبل الظهر، لذا لم نقلق عندما تأخر الرجل العجوز لمدة ساعة أو ساعتين، على العكس كان من السهل تناول الطعام دون أن يكون معنا على نفس الطاولة شخص يلتقط قشور الجراح من ذراعيه.

في طريق العودة إلى غرفتي طرقت باب "زولتان" عاليًا، لكن لم يرد، كان السرير مرتبًا بعناية، وإمداداته المتواضعة من الملابس متناثرة على الأرض، وصورته الملونة بالأبيض والأسود مختفية من الدرج، ألقيت نظرة بشكل غريزي من النافذة المفتوحة على الأرض تحتها لأن الأمر كله بدا أشبه بالانتحار أكثر من كونه هروبًا مخططًا.

بحثنا في الفناء، والكنيسة، والشجيرات في الجانب الآخر من السياج، لكننا لم نجد شيئًا، ولكن "روبرت" لاحظ أن شجيرة "الخطمي" قد اقتلعت؛ مما يبدو علامة على "جنون زولتان" المزعوم، امتلأ الليل بضوء القمر الشاحب ونباح الكلاب البرِّيَّة، كانت مشاعر القلق وعدم التصديق ثقيلة في الهواء، وجلست في صمت بالقرب من النار، ونظرت إلى أعلى حيث نافذة "زولتان" المظلمة، متوقعًا أن ألمح خيال الرجل العجوز الدمث في أي لحظة يشرع في غناء: "العودة إلى اتحاد الجمهوريات الاشتراكية السوفياتية" في تقليده للإنجليزية. لم يتحدث أحد، وسرعان ما انفصلنا وعدنا إلى غرفنا، منشغلين بأفكار حول "زولتان".

Twitter: @ketab_n

استيقظتُ على هزّة "روبرت" لي، استيقظت متكدرًا، وجرني إلى النافذة، وأشار نحو البوابة، التي ترقد خلفها جثة الرجل العجوز ممددة على الأرض، كان ضباب الصباح ينجرف نحو الغرب، ويحوم حول الشجيرات والأشجار الخضراء كما لو كان مختبئًا من الشمس التي كانت على وشك الخروج في أي لحظة.

"زولتان" يرقد حافي القدمين، قدماه داميتان، ووجهه مضغوط إلى الأرض، وذراعاه الضامرتان مبسوطتان كما لو كانتا في عناق، وراحة كفيه مضغوطتان بقوة في التربة الرطبة، أدرناه على ظهره، وكان ثوبه الكتان، وسرواله القطني ممزقين، ومدمى في عدة أماكن، كان هناك جروح عضات بارزة، وعدة قطع مفقودة من لحم فخذه الأيمن، كنت قد سمعت نباح الكلاب، كانت كلاب "زولتان"، حيوانات منتصف الليل الجائعة التي أثارتها رائحة جسده المريض النتنة، ولم نهتم بهم كثيرًا عندما هاموا حول السياج عند الغسق، شخص ما استيقظ، وألقى حجرًا أو جمرة، والعيون اللامعة اختفت بين الشجيرات، وحاول "روبرت" أن يخرج إليهم بقطعة من لحم الخنزير المقدد في يده في إحدى المرات، لكنه ابتعد بسبب نباحهم المزعج؛ كانوا جوعى لشيء آخر، لكن الطبيعة رتبت الأشياء بوضوح: تنجذب الكلاب إلى رائحة الغرغرينا، والتقيح اللذين يفوحان إلى الأبد من زوائد وأورام أبناء الجذام، أكثر من انجذابها إلى قطعة طازجة من لحم الخنزير المقدد أو لحم العجل المفروم، يقول

Twitter: @ketab_n

القانون غير المكتوب إن القتلى يجب أكلهم أولًا - لا بد أن يكون الموت مشمومًا، ولدينا كل العلامات التي تضعنا تحت ظل خبيث يمكن تسميته بصعوبة الحياة.

دون انتظار الشمس، حملنا "زولتان" إلى غرفته، ملفوفًا في شرشف جديد ووضعناه في أحد النعوش المأخوذة من السندرة، ولأن المجذوم يُدفن مع كل حاجته، فإننا قبل ربط غطاء النعش بأربعة مسامير كبيرة وضعنا داخله القليل من الأشياء الصغيرة التي وجدناها متناثرة في غرفته: عدة أزواج من الجوارب المطوية بعناية، ومناديل نظيفة، وغليون عليه شعار النبالة النمساوي - المجري، وعلبة تبغ فارغة والصقر المحنط الذي كان معلقًا على رأس السرير.

كان الأمر كما لو كنا ندفن فرعونًا فقيرًا، هو آخر أسرته الحاكمة، شاهدًا على انحلال إحدى الإمبراطوريات الموسرة.

لم أفكر قبل ذلك مطلقًا في أن زولتان سيكون أول من ندفنه هنا في أرض مستعمرة الجذام؛ كان هناك الكثير من الطامحين الواضحين لهذا العرش المظلم.

Twitter: @ketab_n

انتظرت بقية أسرة الجذام في غرفة الطعام، وعندما ظهرنا توقف الهمس، رأيت أنه كانت هناك محاولات لارتداء ملابس مخصوصة لهذه المناسبة؛ من تزرير القمصان حتى الياقات وفرد الأكمام بعناية، قلت:

"صديقنا العزيز لم يعد معنا".

تلا كلماتي نشيج عال وهمهمة عالية النبرة. دخلت أنا و"روبرت" غرفة الطعام، وجلسنا. سيطر المقعد الشاغر على الأجواء، فقط عندما نقرت على الطاولة تركت النظرات الكرسي الخشبي والزهور الموضوعة عليه. لم يكن سهلًا الموافقة على تفاصيل الدفن، تجادلنا حول أين ينبغي أن يكون القبر، واقترح شخص أنني لا بد أن أقول كلمة مصحوبة بالموسيقى من مكبر الصوت، وتجادل آخرون حول الضريح والرثاء المنقوش عليه.

أصدرت الكراسي صريرًا عندما لوَّح الجميع، وأشاروا محاولين إقناع بعضهم بعضًا حول هذا التفصيل أو ذاك، حتى "روبرت" أمسك قلم رصاص ورسم رؤيته حول مكان مثوى "زولتان" على الطاولة، لم أكن أريد مقاطعتهم لأنني كنت أعرف أن في حديثهم عن دفن الرجل العجوز كانوا في الواقع يفكرون في أنفسهم؛ في الفعل الأخير الذي سوف يودعون به حياتهم البائسة، إلى عالم النسيان بكرامة، بعد عدة دقائق تحدثوا بصراحة عن رغباتهم: الزهور، صلبان خشبية كبيرة، والطقوس الدينية، والمكان الذي يريدون أن يدفنوا فيه، انسحبت، سامحًا لهم التمتع

Twitter: @ketab_n

بأفكارهم اللطيفة عن الحياة بعد الموت، والأسرار التي سوف تنكشف في نهاية المطاف، انتهوا بعد ساعتين وانصرفوا إلى غرفهم، ليس بإمكانهم الحصول على مقابر أفضل.

عندما طرق "روبرت" الباب ودخل، كنت راكعًا على الأرض، بخار تنفسي يبخر نهر الدانوب الورقي على طول الحدود البلغارية، قال روبرت:

"سندفن زولتان في الساعة الرابعة".

وذهب الآخرون بالفعل لحفر القبر بجوار الكنيسة، والأرض طرية وكل شيء سيكون جاهزًا في الوقت المحدد.

علقت خريطة أوروبا على النافذة، لا بد أنها بدت كما لو أنني كنت أريد المقارنة بين الصورة الحقيقية ورسمها البياني.

كشفت الشمس ثقوبًا صغيرة في فرنسا، وبقع بحر زرقاء مضيئة، وطرقًا سريعة حمراء.

تساءلت:

"إلى متى سنتعفن في هذه الحفرة وأوروبا مخبأة تحت الفراش؟".

Twitter: @ketab_n

اندهش "روبرت" من صراحتي، هل كان حقًا عازمًا كما كان في ذلك الصباح عندما وضع جواز السفر على الرف في رأس سريري؟

قال لي:

"إن هذا ليس الوقت المناسب؛ يمكننا التحدث بعد الدفن، لدي خطط، لكن كل شيء معقد بشكل محبط، سنتحدث لاحقًا".

قالها مجددا، وهو يغادر، وأغلق الباب محدثًا ضجة.

كرمشت الخريطة وألقيتها من النافذة، ثم هرعت إلى الطابق السفلي كي أعثر عليها، وأعدتها إلى الغرفة وبسطتها مجددًا كأفضل ما يمكنني، وبعد كل شيء، لقد كانت الرابط المادي الوحيد، جسرًا هشًا، بين الرغبة اليائسة في مغادرة هذا المكان وبين الطرق التي لا بد أن أسافر فيها، فردتها على السرير وأثقلت على الزوايا بهدايا "روبرت" الذي كان بالطابق السفلي يوجه عملية حفر القبر؛ بينما كان آخرون يبحثون عن الأزهار البرية بمحاذاة السياج، ولم يجرؤ أحد على الذهاب أبعد من حدود مستعمرة الجذام، فالكلاب التي ذاقت اللحم البشري في الليل؛ يمكننا افتراض أن شهيتهم النهمة تشتعل الآن كي يغرقوا أسنانهم فيه مجددًا.

بمجرد أن يهاجم النمر البنغالي إنسانًا ويأكله، فإنه يتوقف عن صيد الحيوانات الأخرى، وربما الآن تم تنشيط الجين الفطري لنفس تلك الرغبة

Twitter: @ketab_n

عند هذه الكلاب. ولقد هلكت المستعمرات المعزولة من المنبوذين في شمالي الهند بفكاك هذه الحيوانات البرية التي لاحقت مرضى الجذام المشلولين بكل سهولة ومزقت أجسادهم بحركات قوية قليلة، ولكي يحموا أنفسهم بدأ المجذومون ترك موتاهم، دون دفن، وهو ما أشبع النمور بوجبات وفيرة ومنتظمة، وكان هذا نوعًا من الاتفاق مع الشيطان، كما اتضح، لأنه إذا فوتت النمور يومًا واحدًا فقط فإنها تهاجم تحت جنح الظلام وتنزل عقوبة بسبب النقص عن طريق عض عشرات الأوردة الودجية في العنق، ولهذا بدأ المجذومون إمداد نظام الحيوانات الغذائي عن طريق قتل المجذومين كبار السن، وحتى الخُرَسَاء من سكان القرى الوحيدة في التلال المحيطة، وبالتالي أصبحوا جميعًا دائرة كاملة من الحيوانات والبشر الذين لديهم نفس المهمة.

عندما جاءت وحدة شرطة خاصة لوضع الأمور في نصابها الصحيح، لم يكن في المستعمرة إلا عشرة أشخاص يعانون من الخوف، لم يروا الزي والبنادق الآلية كخلاص، ولكن باعتبارها وسيلة جديدة لتلبية جوع آلهة الشرّ في الغابة، نزلوا على الجنود قابضين على العصي والسكاكين الصدئة، وصارخين بأعلى صوتهم، ولكن دفقة قصيرة وحاسمة من إطلاق النار أوقفتهم في مساراتهم، أُطلقت أعيرة رصاص على ارتفاع الصدر، وكان لدى الكولونيل مهمة واضحة، وكان وجوده من أجل ترتيب الأمور، ولم يكن لديه أي تعليمات خاصة بشأن ما إذا كان لا بد أن يكون الضحايا حيوانات أم مجذومين، فإذا قتل أي من النمور البنغالية المهيبة فسوف يصيبه غضب

Twitter: @ketab_n

المنظمات البيئية الممولة أجنبيًّا. بهذه الطريقة كان الضحايا هم "الموتى بين الأحياء"، وكل شيء موضوع في نصابه الصحيح، وغني عن القول، أن جثث المجذومين اختفت عندما جاء الصباح؛ أو هكذا تقول الأسطورة.

وجعلتنا تلك الأسطورة، التي أعادها "روبرت" على مسامعنا، نجلس في صمت متوتر، وننصت لأية خشخشة بمحاذاة السياج. لم تكن هناك نمور في رومانيا، بالطبع، ولكن نهاية "زولتان" رددت صدى عناصر تلك الحكاية الهندية الحديثة، وجعلتها تبدو حقيقية بشكل غير مريح، حتى إنها جعلتنا نحلم بعيون مفتوحة وننصت إلى النباح المشؤوم كحلقة محكمة حول مستعمرة الجذام.

كان كل شيء جاهزًا، حُفر القبر، وجُمعت باقات من الزهور البرية، وصُنع صليب خشبي متين، وحُملت رفات "زولتان" إلى غرفة الطعام بالطابق السفلي، وارتديتُ قميصًا نظيفًا من الكتان ونزلت إلى الطابق السفلي، كان الآخرون يجلسون بالفعل حول الطاولة التي عليها النعش، ويتحدثون همسًا، كما تنص طقوس الدفن، ويحتسون الشاي في فناجين مطلية بالمينا.

أخبرني "روبرت" أننا سوف ندفن "زولتان" في تمام السادسة، وأنني سوف ألقي خطابًا، قلت:

Twitter: @ketab_n

"لا مشكلة، ولكن لماذا الصليب؟ رغم أي شيء، كان الرجل العجوز شيوعيًّا".

وقال "روبرت":

"سوف أستبدل الصليب، وأصنع شاهدًا حجريًّا لطيفًا محفورًا عليه اسم "زولتان"".

اليوم كان عليهم وضع شيء في الأرض لتمييز القبر، فلم يكن سليمًا ترك كومة من التراب فقط.

بعد ساعة بدأ موكبنا، اندلع النحيب عندما رفعنا النعش عن الطاولة، حملنا "زولتان" عبر غرفة الطعام وإلى أسفل الممرّ الطويل حتى مكان الخروج، لم يكن النعش ثقيلًا: تعاني عظام المجذوم من نقص في الكالسيوم والنسيج الضامّ، وبالتالي فإن وزن رجل متوسط القامة أقل مما كان متوقعًا.

رأيت الشمس الحمراء تغرق في تيجان الأشجار، وحملت الريح الأبخرة الحمضية من مدخنة المصنع حيث توجهنا لما كان سيصبح قبر "زولتان"، وملقى على يمينه كومة من التراب عليها كلب أسود كبير يلعق خصيتيه، توقفنا ووضعنا النعش، وشاهدتنا عيون محتقنة بالدم بلا مبالاة حتى التقطت حجرًا وقذفته في أنف المخلوق، فنهض وبدأ في الزمجرة كما لو كان يتوعد بالعودة، انحدر من الكومة، ورفع ساقه

Twitter: @ketab_n

الخلفية، وأطلق نافورة صفراء عند سفح الصليب الخشبي، وأجبره حجر آخر على الهرولة مبتعدًا بلا مبالاة نحو السياج؛ ألقى علينا نظرة ثم اختفى بين الشجيرات، عندما كنت أتحدث عن فضائل "زولتان"، وطبيعته اللطيفة، واستعداده الدائم للعودة إلى الابتسام، جاء عواء مكتومًا من حشد من الجوعى من الغابة، وكان ذلك العويل الوحشي هو الموسيقى الوحيدة المصاحبة لجنازة "زولتان".

ضغطنا الأرض فوق النعش بأقصى ما في استطاعتنا من حزم، ارتفعت كومة التراب عشرة سنتيمترات فقط كما لو كنا دفنًا كلبًا صغيرًا، وليس رجلًا بالغًا في نعش معدني، وفي ذلك الوقت، لم يكن هناك أي شيء يعلن عن المطر القادم.

ذهبنا جميعًا إلى غرفنا، ولاحقًا انتهينا من عشاء موجز صامت، وذهبنا إلى السرير، وكان "روبرت" أول من انسحب تحت البطانية، وعندما جئتُ صفقت الباب عمدًا أملًا في إجباره على الوفاء بوعده، كما قد قال سنتحدث عن كل شيء لاحقًا، لكنه كان الآن يتظاهر بالنوم.

التقطت قطعة قماش مبللة من الأرض، وحاولت إبعاد سرب من الذباب من حول المصباح الكهربائي، وكلما أخطأته كنت أسبّ بصوت عالٍ، في محاولة لجذب انتباه "روبرت"، ولكنه لم يتحرك، حتى ضربته بقوة على رأسه؛ فتدلت الخرقة على جبهته المجدورة بصوت عال، فقفز وجلس على

Twitter: @ketab_n

السرير دون أن ينبس ببنت شفة، بدا الأمر كما لو كان يبكي، كان على وشك التحدث ولكن قاطعه هدير الرعد الجبار، تلاه ومضة برق غمرت وجوهنا بضوء مزرق، هبطت ذبابة على وجهه بحثًا عن إفرازات مغذية من جلده المجذوم، توقفت الطفيلية الصغيرة عند قاعدة الأنف، تغذت على قطرة من صديد دمويّ سالت على شفته العليا، عرضتُ عليه منديلًا أبيض نظيفًا من جيبي حتى يتمكن من التخلص منها؛ أخذه "روبرت" بلطف وجفف عينيه، لقد كان يبكي بالفعل، جالسًا على السرير، كان يبدو أصغر بكثير من المعتاد، ارتعدت ذقنه بينما كان يحاول السيطرة على نحيبه، مشيتُ إلى النافذة ونظرتُ إلى سقف الكنيسة والصليب؛ حولتُ نظراتي إليهم كلما أضاءهما البرق، سطح عالم "روبرت" الرقيق وغير المستقرّ.

كل الخطط والأفكار التي جعلت الأيام في مستعمرة الجذام ممكن تحملها، ذابت مثل ثلوج مارس الهشة، تغير صوته العميق، الواثق في نفسه إلى تمتمة غامضة لا يمكنها منافسة صوت المطر، وبدلًا من ابتسامته الساخرة، تجتاح موجات اليأس والقنوط وجهه الآن، وعندما ناديته هزَّ رأسه فقط.

غطى الفناء طبقات سميكة من الطين، عندما كنت أمشي كنت أرفع قدمي عاليًا بعيدًا عن الأرض، وترشّشَتْ قطرات كبيرة من المطر على رأسي العارية، وصلت إلى الجدار الجنوبي، وانتظرت ومضة أخرى قبل

Twitter: @ketab_n

المواصلة. عند الحجر السابع من اليسار في الصف السادس من القاع كان جواز سفري حيث من المفترض أن يكون، وبينما تصور ومضات البرق الموجودة المحيطة أكثر من أي وقت مضى الآن، مُجمِّدة الفروع والأوراق المتساقطة، كان قبر "زولتان" في وسط بركة مستديرة.

وعندما كان البرق يضيء الأرض بقوة مجددًا ظننت أنني رأيتُ الكلب الأسود أعلى كومة القبر، كان يحفر بجنون، ولسانه النهم يتدلى، صرخت فيه، غير عالم ما إذا كنت أبعد الحيوان أم شبحه، خُضتُ إلى أسفل الممر، تاركًا آثار أقدام موحلة سميكة.

أردت عرض جواز السفر على "روبرت" وسؤاله ما اذا كان قد نسي أمر الرحيل كليًّا، الذي بدا لي أكثر فأكثر كنمر يرقد متربصًا، وحش متين البنية لم يكن لدينا أي أمل في قتاله، لديه الآن مخلب كبير على "روبرت"، وإذا لم يتحاش قبضته الآن فسوف نُدفن هنا حتى تحين المملكة.

خلعت حذائي، كان يجلس على سريره، مبتسمًا، وهو يمزق خريطة أوروبا إلى كومة من أشلاء الورق الصغير، وعندما كان يمزق القطع الأخيرة من الدول الإسكندنافية، التقط بعض القطع غير منتظمة الشكل، محاولًا معرفة من أين كانت، فتحت جواز السفر الرطب وأمسكته أمام أنفه، أخبرته أنني سأعتبره جبانًا ميؤوسًا منه ما لم يستعد رباطة جأشه، ويعيد النظر في سلوكه.

Twitter: @ketab_n

طفت السحابة السوداء بعيدا عبر السهل، مخلفة وراءها طبقة سميكة من الهواء النقي، توقف "روبرت" عن البكاء، وطلب مني إغلاق النافذة، بدأ الجو في البرودة، انطلقتُ إلى أسفل حيث غرفة الطعام للحصول على كوب من الشاي، جفت آثار الأقدام الموحلة، وأصبحت الآن مثل خطى "رجل يوم الجمعة"، إذا تبعتها فلن أندهش إذا انتهت في غرفة مختلفة تمامًا أو عالم آخر؛ لقد بدت غريبة جدًا حقًّا.

ارتعدت يد "روبرت"، صانعة زوبعة مصغرة على سطح الشاي، تمكن أخيرًا من تركيز نظراته، كان يحدق في أشلاء متناثرة من أوروبا ويرتشف السائل عديم المذاق، لم أصرّ على التحدث إليه لكنه بدأ يهزّ رأسه ويخبرني أنني سمعتُ بالفعل ما اضطر إلى قوله عدة مرات، السيد "سموز" قادر على ضمان الانتقال، أخذ "روبرت" رشفة من الشاي، قائلًا:

"سوف نؤخذ في شاحنة الصليب الأحمر، ومن السهل رشوة السائق".

والتقط "روبرت" قطعة من لحاء الدردار من بين أسنانه مضيفًا:

"سوف نستخدم الطرق الفرعية كي نتجنب نقاط تفتيش الشرطة ودوريات الجيش، وهو ما سيأخذنا جميعًا إلى الطريق إلى نهر الدانوب".

وضع "روبرت" الكوب على الأرض، وكان كل ما علينا فعله هو تقرير إلى أين سنذهب بعد ذلك، سيضعنا السيد "سموز" على متن الشاحنة

Twitter: @ketab_n

الروسية المتداعية مع طاقم من رجلين متوجهين إلى فيينا لاحقًا كي نعود إلى الميناء على الساحل البلغاري، والتقط "روبرت" الكوب مرة أخرى، وأجرى إصبعه حول الحافة المطلية بالمينا.

كان قلبي يدق بعنف، وانتشرت قطرات العرق البارد على جبهتي، لم تكن خطط من هذا القبيل تخيفني، بل استكانة "روبرت" القهرية التي حولت نهر الدانوب الأزرق إلى كوب من سائل غائم عديم الطعم تحت أنفه، وقلصت أوروبا إلى كومة من الأوراق الممزقة، وقفت بذراعين مفرودتين، وألقى هو بنفسه على سريره، وتغطى ببطانيته وتمنى لي ليلة طيبة بدم بارد. لو كان معي عصًا أو سكينًا وقتئذ، ربما كنت قتلته بلا تفكير، تمامًا مثلما ذبح آمالي في الهروب من هذا المكان، قفزتُ على السرير، وامتطيته، وذهبت يدي إلى حنجرته مباشرةً، اعتصرتها ولم أبال بركبتيه التي دقتا على ظهري، مفجرة البثور المتورمة، تصورت أنه سيكون أقوى وسيحرر نفسه بسهولة من قبضتي، ولكنه كان خائفًا، لوح بذراعيه، متوسلًا أن أتركه، لكنني لم أتوقف، شاهدت الوريدان الوَدَجيان في عنقه وشبكة الشعيرات متورمة عبر جبهته بفضول، بدوا كأنهار تتدفق معًا، مثل خريطة ظهرت من تحت سطح الجلد، بدأ يصفّر من أنفه، ورغم الضغط سمعت ذلك اللحن المألوف: "عابر سبيل غريب فقير. أسافر عبر هذا العالم من الويل"، قبلت هذا كرسالة توبة وخففت قبضتي قليلًا، حاول "روبرت" السيطرة علي بالأنف، وقال:

Twitter: @ketab_n

أنت أحمق، إلى أين ستذهب؟ هل لديك زوجة بصدر جميل وسرير دافئ في انتظارك أنت فقط؟ ربما أصدقاء؟ هه؟ هل تعتقد حقًّا أن هناك أي مكان آخر لنا؟ هه؟

نظرت شزرًا إلى "روبرت"، وأردت وضع يداي حيث كانا لأنه ما زال يقول ترّهات، ولكن الآن بدون اقتتال، تناثرت من أنفه قطرات دم، حاول مسحها لكنه لطخ بها وجهه، ناديته بالغبي الحقير، ألا يمكنه رؤية أن الشيء الوحيد في حياتنا الذي لا يزال يستحق فعله هو ترك هذا المكان؟

أجاب بضحكة ساخرة، رددت عليه بصفعة فقهقهة بصوت أعلى.

لم أكن أقصد ضربه حقًّا، لكنني كنت ضحية موجة من الحزن برزت من مكان عميق في داخلي، شعرت كأنني أهرب من تلك اللحظة بالذات، محطمًا عاريًا عبر الحقول مثل هذين العاملين الغبيين، وسوف أقفز من فوق الحجارة وأخوض عبر حقول القمح، يلتهمني ظلام السهول الرومانية الذي لا نهاية له، والعشب يدغدغ ساقي، وقطيع من الخيول يتدافع عندما يسمع دق أقدامي، كنت أرغب في ظهور القمر مكتملًا في الأفق وكذلك الغيوم المسافرة إلى الجنوب، سوف أصيح بفرح كصقر، كلا، بل كزعيم هندي على رأسه غطاء من الريش، سيكون الأمر مثل الطيران، وتندلع نيران كبيرة بعيدًا في الغرب.

Twitter: @ketab_n

من هم هؤلاء الأشخاص الذين يجلسون حولها ويغنون؟ توقفتُ، وأضاءني وهج أحمر، دعوني للانضمام إليهم، غمرني دفء حميمي، وكانت النساء بأثداء كبيرة يرضعن أطفالًا في غاية الجمال، وبدأت فتاة في الرقص، وصفق الآخرون إيقاعًا وهم يشاهدون جسدها الرائع، كان الجميع جذابين وينعمون بالصحة، ولكن قطع اضطراب المرح، بصوت خافت أولًا، ثم بصوت أعلى، وبدأ الأطفال في البكاء، وانتحبت النسوة خوفًا، ولم يعد أحد يصغي لي. ثم صدر عويل ونحيب من الظلام، وقبَّل الرجال الأطفال وداعًا، وأشاروا إلى النساء كي يتحولن إلى طريق آخر، وانطفأت النيران، وسمعنا عويلًا من الحافة التي كانت دائرة الضوء عندها، وعلا أكثر صوت نباح متعطش للدماء، وقفزت كلاب سوداء كبيرة إلى حلمي مباشرةً، لكن "روبرت" هز السرير بقوة، وأجبرني على فتح عيني، كانت لا تزال قطرات الدم الجافة على وجهه، وكنت على وشك أن أفتح فمي وأسأله عما إذا كان هو أيضًا قُرب أحد حلقات النار، قرَّب رأسه مني وأخبرني أن شيئًا ما كان يحدث في الفناء، مال على النافذة، وأشار إلى قبر "زولتان"؛ يعتقد أنه رأى الكلب الأسود، ودعاني لإلقاء نظرة، توجهت ناحيته مترنحًا، مُطاردًا بنهاية حلمي، وظهر قمر مكتمل بعد العاصفة، مما جعل حتى أصغر الأشياء مرئية، خيم صمت ثقيل على الهواء الرطب بالخارج. قلت له:

"لا يمكنني رؤية أي شيء".

Twitter: @ketab_n

حدقت في الظلام لعدة ثوان أكثر بينما كان "روبرت" يجلس على سريره، وتلعب قدماه ببواقي الخريطة على الأرض، ابتسم عندما وجد قطعة من ألمانيا وعليها برلين، اعتذر عن سلوكه غير المقبول، وقال إنه لم يشعر أبدًا بمثل هذا النوع من الشك في حياته من قبل، سألته توضيحًا عما كانت هذه الشكوك، ولكن ظل يقول كيف كانت حياته فوضوية، وكم كانت سخيفة محاولًا فعل أي شيء لتصحيح ذلك، وفي النهاية لوح باستخفاف، وقال إنه قرر أننا لا بد أن نرحل رغم أي شيء، وشكرني على صفعة الإفاقة وفرك خدّه المحمرّ، قلت إنني آسف، وإنني لم أكن أقصد ضربه، قال لي إن أحدا لم يضربه بهذه الطريقة منذ أسره في أقبية برلين .

أعتقد أن هذا كان عندما عانقت روبرت لأول مرة.

تحدثنا حتى بزوغ أول ضوء، ثم ذهبنا إلى النوم بسلام، آمنين الآن فيما تبدو قراراتنا الواضحة، وخططنا الدقيقة وآمالنا من أجل غد أفضل، وفي اليوم التالي كانت الفتحة الصغيرة في قبر "زولتان" هي الشيء الوحيد الذي ذكرني بكوابيس الليلة الماضية، وكان الكلب هناك يحاول محاولات يائسة الوصول إلى اللحم.

Twitter: @ketab_n

Twitter: @ketab_n

الفصل السادس

كان الصيف يمر، و"روبرت" متواجد أقل فأقل، لكن لم أكن أريد ازعاجه بالأسئلة، شاهدته يقفز من فوق السياج في فترة العصر، افترضت أنه ذاهب إلى لقاءات سرية مع السيد "سموز" لاتخاذ الترتيبات اللازمة لرحيلنا، في كل مساء عندما نطفئ النور كنت أتوقع أن يتحدث "روبرت" ويشرح ما كان يحدث، لكنه كان صامتًا، ولم أكن أريد أن أبدو فضوليًّا للغاية، بذلتُ قصارى جهدي لاستغلال وقتي جيدًا، بعد شهر من العمل الشاقّ كان شاهد قبر "زولتان" جاهزًا لرفعه، وخمسة عشر يومًا آخر وكان التل مزينًا بفسيفساء من الحجارة التي كنت قد أحضرتها من كومة القمامة الموجودة عند المصنع. وكان العديد من المرضى، بقيادة "مستيسلو كاسويزك" على استعداد للمساعدة، راكمنا

Twitter: @ketab_n

مخزونًا كبيرًا من خشب التدفئة، ووجد "سيون إيمنسكو" عدة فخاخ ثعالب صدئة في السندرة بالأعلى، ونصبناهم بطول السياج على أمل أن يوقف هذا الكلابَ عن القدوم إلى الفِناء. لم يشارك "روبرت" في العمل، ولكنه كان مستعدًّا دائمًا لإبداء إعجابه بالنتائج، ولم يكن بمقدوري إلا التذكير بقصة الدجاجة الحمراء الصغيرة.

حَصَلَ على معلومات حول الخطة على جرعات صغيرة بشكل غير منتظم، وبحلول نهاية أغسطس كنتُ أعرف أننا سنرحل خلال شهرين أو ثلاثة، كانت الخطة كاملة هي أن ننزل في مكان قبل أن نبدأ رحلتنا، أدركت هذا عندما قال لي إن معظم الناس رفضوا الوظيفة بغض النظر عن المال، بمجرد أن سمعوا أننا كنا مرضى جذام؛ نفَضوا أيديهم رعبًا، سألت:

"لماذا تحتّم على السيد "سموز" كشف ذلك؟".

"إنه روماني شريف لا يريد تعريض مواطن لخطر خفي".

وذكر "روبرت" أن ذلك هو السبب في أنه يحاول جاهدًا العثور على سائق كان مريضًا بالسلّ.

من المعروف أن الأشخاص الذين أصيبوا بالسلّ لا يتأثرون ببكتيريا الجذام العَصَوية.

Twitter: @ketab_n

لا أفهم لماذا يحاول جاهدًا هكذا – ربما يريد الحصول على أكبر مبلغ ممكن من المال فحسب.

قال "روبرت" مؤكدًا:

لا، إنه رجل طيب ويريد المساعدة، لقد أمضى حياته كلها في إرسال مرضى الجذام إلى هذا الثقب، وربما ضميره يعذبه، ويريد أن يكفر عن ذلك، وليس لدي أي مشكلة على الإطلاق أن أصبح هدفًا لكفارته.

لم أكن سعيدًا بالطريقة التي تتطور بها الأمور، كنت منزعجًا من سلوك "روبرت"، لكنني بالمثل مصدوم من عدم اكتراثي، ورضوخي لصفقاته السرية، رميته بنظرات صارمة تعني أنني سأمسك في خناقه مرة أخرى إذا ما فسدت الأمور، ولكنني عادة ما أكون مرهقًا بعمل اليوم، وفي المساء لم يكن لدي قوة إلا للسؤال بصوت منهك:

"هل كل شيء على ما يرام؟".

لكن، رغم هذا التعب، شعرت بالقوة تعود إلى ذراعاي، وعندما شددت قبضتاي، برزت خطوط واضحة من العضلات أسفل ساعداي مباشرةً، واختفت التقرحات جزئيًا من ظهري، لذلك كثيرًا ما كنت أجلس في الفناء عاريًا حتى الخصر، كل هذا مدمجًا مع حقن الدواء المحسوب جرعاتها بعناية، والكميات الكبيرة من شاي الدردار ساعدني على الشعور بصحة

Twitter: @ketab_n

تقريبًا جيدة مرة أخرى، لم يكن لدي أي مشكلة في تقطيع الكتل الكبيرة من الخشب إلى نصفين، وغالبًا ما كنت أشعر بتحديقات عيون الحاسدين التي قد تنسحب خلف الستائر بصوت حفيف وتختبئ في الظلام، أما إذا انزعجت من حماقات مساعديَّ وصِحْتُ غاضبًا، فإنهم يخجلون ويحاولون جاهدين أكثر الوفاء بالمهامّ التي طلبتها منهم، ودائمًا ما يأتي أحد الأشخاص مسرعًا بإبريق من الماء البارد، وعلى العشاء لم يكن هناك أي جدل حول من يستحق أكبر وجبة من البطاطس أو أكبر قطعة من اللحم، فلم يكن منصبي القيادي المتفق عليه ضمنيًا أكثر وضوحًا من الآن، ولا يمكنني إنكار استمتاعي بترسيخ النظام، والاجتهاد، والانضباط، واستحداث قواعد جديدة.

أما المرضى الآخرون فينظفون النافورة أو يمشطون الفناء لإزالة الأحجار الصغيرة، وإذا ظهرت في النافذة فإنهم بالفعل يستغرقون في عملهم ليظهروا ولاءهم، إلى جانب كل مزاياه، فإن هذا الوضع كان مرتبطًا بأكبر عدد ممكن من أوجه القصور، كما اكتشفت ذلك فيما بعد عندما أرسلني السعال ودرجة الحرارة إلى الفراش مصابًا بحمى شديدة، وجلس "روبرت" بجانب سريري يدلكني بالكحول، وعندما يحاول أي شخص الدخول، فإنه يقتاده بعيدًا بتذمر غاضب ويصفق الباب، ولكن في إحدى المرات قرب منتصف الليل فشل في إغلاق الباب في الوقت

Twitter: @ketab_n

المناسب، وغرز "مستيسلو" حذاءه الكبير في فتحة الباب، وسرعان ما اندفع الباب مفتوحًا، وقال "مستيسلو":

"لا بد أن نتحدث مع الزعيم".

رد عليه "روبرت" :

"الزعيم؟".

قال المخنث:

"نعم، الزعيم. ابعد الآن عن الطريق، ودعنا نعبر".

ودخلوا إلى سريري مع ثلاثة آخرين.

استمر "روبرت" في الكلام من خلف ظهورهم، كان يعرف أن طموحاتي سترتد علي يومًا ما، كان يعرف هؤلاء الحمقى بجميع دناءتهم، يمكنك أن ترى الحقد والحسد في عيونهم، ليس من قبيل المصادفة أن الله قد كافأهم بالمرض، صاح بصوت أعلى وأعلى، ثم تحول صوته إلى خارج الممر، وسمعته يصرخ:

"دعوني أذهب يا أغبياء، سأقتلكم جميعًا، وأنت أيضا يا "سيون"، سوف أحشر كرسيًا في مؤخرتك!".

Twitter: @ketab_n

ثم انقطع صوته فجأة، وردد الممر صوت ترباس الغرفة 42 الثقيل في أسفل القبو.

عادت الخطوات نحو غرفتي وتوقفت خارج الباب، وعندها فقط لاحظت أن المجموعة تزدريني، سأل صوت قَلِق عن حالي وإذا ما كنت أشعر بتحسن الآن، قالوا إنهم يفتقدونني بالفعل، واليوم لم يتمكنوا من تنظيم العمل بشكل صحيح، وكانوا يتشاجرون بلا داعٍ على التفاصيل الصغيرة، كانت رؤوسهم محنية كما لو كانوا خائفين من التوبيخ، في تلك اللحظة نسيت أمر "روبرت". ما كان يجري في الغرفة كان غريبًا للغاية، خفض أحدهم يده بحنان على جبهتي ثم أومأ إلى الآخرين، بما يعني أن الوضع خطير، اختلسوا النظر إلى بعضهم البعض محاولين الاتفاق على من سيتحدث؛ لكزوا بعضهم البعض، وهمسوا، تقدم أحد الظلال خطوة إلى الأمام.

"تعرف ... كنا نعتقد أن ... آآآ ... كيف يمكنني قول ذلك ... ".

تلعثم، قبل أن يسحبوه إلى الخلف، ثم تحدث صوت أكثر حزمًا الآن:

"نظرًا لحالتك الصحية، قررنا أن شخصًا آخر لا بد أن يقوم بدورك".

Twitter: @ketab_n

عندما قال "دورك"، كنت أتساءل ماالذي يعنيه ذلك؟ في تلك اللحظة كنت أتغلب على الرغبة في القيء، سعلت وضغطت يدي على بطني، رفعت رأسي بصعوبة وتصاعدت كتلة كريهة من فمي على أحذيتهم مباشرة، انتشروا في زوايا الغرفة وأمسكوا أنوفهم، لم يقترب أحدهم كي يقدم لي كأسًا من الماء أو قطعة قماش، وقفوا وظهورهم مضغوطة بقوة على الجدار كما لو كانوا يرفعون العالم كله، تقيأت وتقيأت حتى شعرت كأن معدتي تحاول طرد نفسها، مسببة ألمًا لا يطاق، أكل الحامض في جلد وجهي، قاومت الرغبة في خدش نفسي حكًّا ولسعًا في كل مكان، حتى هدأت حُمتي قليلًا، ولكن كان كل شيء من حولي فوضى، كان لي جلد إوزة، وارتعاشة تسري عبر عروقي، واحتياطياتي من القوة التي تراكمت خلال أشهر الصيف من التعرق والمجهود البدني تبخرت الآن في الهواء.

نظرت إلى أسفل إلى ذراعاي وساقاي بفضول حيث يرقدان مرتخيين بجوار جسدي، حاولت تحريكهما، لكنهما تحركا قليلًا فقط وتألمت عضلاتي، ولم يعد أحد يقف مقابل الجدران، تراجعوا بينما كنت أحاول التقيؤ على الأرض، وتركوا الباب مواربًا، امتدت ذراع "سيون" المشعرة لاحقًا وأطفأت النور. غرقت مستعمرة الجذام في ظلام دامس، ولكن أفكاري نهضت مثل مصاصي الدماء المتجهين إلى عربدتهم الليلية.

Twitter: @ketab_n

اعتادت عيناي قلة الضوء، يمكنني النجاح في فعل أشياء معينة والتركيز فيها كما لو كنت أعيد اكتشاف العالم، لم يكن هناك أي صوت يكسر الصمت المكتوم، بقليل من الخيال يمكن أن أكون ربانا خلعه تمرد على سفينة أشباح. ذئب بحري منهك محكوم عليه بقضاء بقية أيامه على جزيرة مهجورة في المحيط الهادئ يتغذى على المانجو والديوك الرومية البرية، ولكن كل نظرة مختلسة على سرير "روبرت" بشراشفه البيضاء المكومة في المنتصف أوصلتني إلى حافة اليأس، بقايا الخريطة، التي ما زالت متناثرة تحت السرير، رفرفت الآن في كل مكان في الرياح العاتية مثل أجزاء من نبوءة مشؤومة طفولية، وهفهفت مدن أوروبية متناثرة، وبحار متفرقة، وأنهار مُقَطَّعة، وبدا كما لو كان ذلك الحفيف يحوي ضحكًا ساخرًا من كل الطرق والمسارات، ومن كل براري الشرق العجيبة، ومتنزهات الغرب المصقولة.

وبينما كانوا يغنون في صوت واحد: "أبدًا، أبدًا، أبدًا" كنا نحصل على قبرين جميلين على جانبي قبر "زولتان"، ومع مرور الوقت، ستنبت الخُبيزة وتنمو من التلال، وتتغذى على أجسادنا المتحللة، وستنزلق النحلة الموسمية البائسة فقط كي تشيد بعظامنا المتعفنة، المقدسة ليس بقطرات الدموع ولكن بقطرات بول الكلب.

Twitter: @ketab_n

فتحت عيني، كانت عدة ذبابات كبيرة تطنّ حول رأسي، ولم يقدم الواقع أي تحسين على حلمي، الآن بعد انحسار الظلام، كنت أشعر أنني أفضل هناك- تحت ستة أقدام- عما كنت، وأعلنت الطيور بزوغ الفجر، وأذن ديك بعيد في شروق الشمس، تنهدت عظامي في ألم، وما زالت البقايا المتخلفة من الليلة السابقة عالقة برأسي.

لم أكن أعرف إذا كان "روبرت" ينادي عليّ حقًّا، أم أنني فقط كنت أحلم بذلك، كان الباب مغلقًا، ومقفولًا أيضًا، كما ظننت.

نظرت حولي، باحثًا باستماتة عن كوب من الماء بالقرب من رأس السرير أو على الأرض، ولكن كل ما أمكنني رؤيته كانت قطرات كبيرة من الندى على زجاج النافذة، تلمع مثل الألماس مع الضوء الأزرق الغريب الذي يتلاشى تدريجيًا مع شروق الشمس.

انتظرت الأصوات الأولى في مستعمرة الجذام، كان ينبغي أن يكون هناك خطوات تتردد بالأسفل في القاعة، ذاهبة إلى غرفة الطعام أو الحمامات، وفوجئت بسماع طرق على الباب، وصرير المقبض وصوت الخفاف تجرجر على الأرض.

كان "سيون" يحمل إبريقًا كبيرًا من الماء، وقال إنه نسي إحضار كوب.

"هل لي بكوب؟".

Twitter: @ketab_n

"كلا، لم أحضر واحدًا".

بمجرد أن اقترب مني، استجمعت كل ما تبقى من قوتي كي أمسك رداءه الكتان الطويل، وجذبته بقربي، حذرني قائلًا:

"احذر، سوف ينسكب".

رفعت رأسي إلى الإبريق، فطرقت أسناني حافته، جرت جرعات الماء البارد إلى أسفل حلقي، شعرت بها تنتشر في معدتي، وقلبي ينبض أسرع، والعرق يغطي جبيني، استجمعت يدي الخالية القوة، وبينما ابتلعت آخر الماء بجرعات كبيرة، لكمت الحقير في فكه المبتسم ابتسامة عريضة مباشرةً، فترنح وسقط بجانب السرير، اعتقدت أنه سيغشى عليه لفترة من الوقت، ولكن الضربة لم تكن بهذه القوة، قفز على السرير بكل قوته وأمسك بعنقي، تمكنت من ضربه عدة مرات قبل أن يقتحم "مستيسلو" الغرفة، ويسحب "سيون" جانبًا، في تلك اللحظة أدركت التسلسل الهرمي الجديد، كان "مستيسلو كاسويزك" العمدة الجديد بقواعده وأوامره الخاصة، ومع ذلك قد يكون من المبالغة القول إن مستعمرة الجذام لديها هيكل قيادة واضح يطيع فيه الجميع عن طيب خاطر الديكتاتور الصغير ويمتثل لكل نزواته، في الواقع، يبدو كل شيء وكأنه فيلم سيئ، وكانت المشكلة أنهم يبدون جميعًا مستمتعين بأدوارهم وينجرّون برغبتهم إلى استكانة مثيرة للاشمئزاز: منحطون

Twitter: @ketab_n

صاغرون نموذجيون، للأسف كنت رئيس الكهنة، والرائد الذي وضع بالصدفة هذا النوع من النظام في المقام الأول، ولا أشك أنه جلب بعض أنواع أخرى من الأعراف معه، مثل تغيرات السلطة العنصرية، وطرد القائد المخلوع ورفاقه.

أومأ "مستيسلو" بشدة نحو الباب، أراد "سيون" الاحتجاج، لكن "مستيسلو" رفع إصبعه على شفتيه ببطء، غادر "سيون" الغرفة مطأطأ الرأس، أغلق "مستيسلو" الباب وجلس عند قدم السرير، وطوى ساقيه المتيبسة بصعوبة، وسألني ناظرًا إلى قدمي:

"هل تشعر بتحسن؟".

التوت أصابعي، كنت أرغب في الابتعاد عن تلك العيون، وكان يرمق جسدي برض، متلكئًا عند عضلات صدري، وانتفاخ سمانتي، وقال:

"تبدو بصحة جيدة".

سحبت الشرشف حتى ذقني، فتابع:

"لا تشعر بالخجل، نحن جميعًا سعداء، تبدو كما لو أن مرضك - أقصد الحقيقي - يشفى، ولكن أنا وأنت نعرف أنه من المستحيل تقريبًا،

Twitter: @ketab_n

الوحش داخلنا لا يرحم، ينام لفترة كالأفعى، ولكنها تهاجم من جحرها مرة أخرى، أليس كذلك؟".

شمر الأكمام عن ساعديه كاشفًا ندوبًا عميقة وتقرحات نصف ملتئمة أكلت الجلد عميقًا وصولًا إلى العظام.

"أترى؟ هذا هو سحره، تبدو الجروح دائمًا وكأنها في طريقها للاختفاء في اليوم التالي، الأمل الأبدي: إنه يقتلنا مثلما يفعل الجذام".

نعم، ذلك الأمل. كان يحدّق في السقف كما لو كان يبحث عن خيوط العنكبوت، أو عن الله، سوّى ثوبه، وغاصت يده اليمنى عميقًا في طياته، خافضًا بصره، وأخرجت أصابعه الملتوية المشعرة جواز سفري، ابتهج مثل الساحر الهاوي الذي نفذ لتوّه خدعة ناجحة، وقال:

"كنا نبحث عن السجائر في الدرج".

وأعاد جواز السفر إلى مخبئه بالقرب من جسده، نهض متألمًا وعرج إلى النافذة، لم أرتكب الخطأ نفسه مرة ثانية، كنت أعرف أن "مستيسلو" يمكنه التغلب علي بسهولة في وضعي الحالي، لذا كان كل ما فعلته هو إلقاء نظرة خيبة أمل فارغة مثل التي أتصور أنك تراها على وجوه الناس الذين يموتون، وقال:

Twitter: @ketab_n

"سيكون في حفظي حتى تتحسن حالتك".

ثم سألني إذا ما كنت أريد مزيدًا من المياه، ومشى متثاقلًا إلى الباب وذهب، وترددت خطواته المتزعزعة أسفل القاعة، وكان يصفر مقطوعة موسيقية مملة للموسيقار الإيطالي "ألبينوني"، لم يتمكن من الوصول إلى النبرات العالية، لذا عاد إلى البداية مرارًا وتكرارًا، ذهب صفيره خارجًا إلى الفناء، وتجول اللحن بكسل تحت النافذة، ورافق "ألبينوني" صوت رشات البول أسفل الجدار، وارتجف قرارُ الصوت بينما كان يتخلص من القطرات الأخيرة، ولم يتوقف عن الصفير حتى رنَّ جرس الفطور، ثم سُمع صوت صرير مقابض الأبواب، وبدأت الحوارات الأولى حول متاعب الليلة الماضية: عن آلام الظهر والنزيف من الشرج.

لدي ما يكفي من القوة للنهوض، ذهبت الحمى، ولم أعد أشعر بالألم الموهن في عظامي، لكنني بقيت في السرير، وسألت نفسي إذا كان هناك أي سبب للاستيقاظ، سرق تحول أحداث الليلة الماضية أشياء كثيرة من معناها، ولكن يتعين علي التكيف، وكان الشيء الذي كنت مستعدًا لخنق صديقي "روبرت" من أجله يحدث الآن، الآن يجلس ذليلًا على أرضية الغرفة 42 الرطبة، يعيد المعاناة من تجربة الأسر القاسية التي يمكن أن تقوده هذه المرة إلى الجنون، كان من الخطأ تجاهل كلمات "زولتان"

Twitter: @ketab_n

القديمة والتلويح بالرفض عندما قال: "إنهم كانوا جميعًا مجرمين سرّيين، وكائنات فاسدة بأرواح غربان".

الآن لا أحد يمكنه أن يتصورهم بسهولة وهم يتحلقون في دائرة ويطردون كل اللطف والطيبة الإنسانية المتبقية في هذه الجدران والقبور والأرض، ولكن قبل أن ادع عقلي يتشتت في هذا الاتجاه، سمعت أحدهم ينادي "روبرت" بالأسفل تحت النافذة، بهدوء في البداية ثم بصوت أعلى فأعلى.

لم أتعرف على الصوت الذي كان مكتومًا ومشوّهًا، عندما نادى الرجل اسم صديقي للمرة الرابعة، توقف وأشعل سيجارة، سمعت صوتًا معدنيًّا من ولاعة السجائر، وأول نفَس عميق من السيجارة، ونادى مرة أخرى:

"روبرت"؟!

عندئذ تراجعت بخطوات سريعة، فأسقطْتُ الإبريق عندما قفزت، وواجهتْ قدمي بركة مستديرة من المياه وعدة شظايا من مقبض السيراميك انغرزت في أخمص قدمي، خطوت إلى النافذة متألمًا، تاركًا أثرًا من الدماء.

يقف "مستيسلو" الآن بالأسفل، وبجانبه "سيون" مع آخرين محتشدين عند المدخل، وسيد "سموز" واقف عند السور، يسحق سيجارة بكعبه، وينظر إلينا بضع ثوانٍ، لكن لم يجرؤ أحد على التحدث معه أو التوجه إليه، يرتدي السيد "سموز" قبعة عريضة الحواف تظلل

Twitter: @ketab_n

وجهه، ولكن تميزه بالطريقة التي يمسك بها سيجارته، مغروزة بعمق بين إصبعيه الوسطى والبنصر، لوحت له، لكنه قفز من السياج واختفى في الشجيرات دون أن ينظر إلى الخلف.

هز "مستيسلو" كتفيه كما لو كان يأسف لعدم استقبال الضيف الثقيل استقبالًا أكثر لطفًا، واتجه إلى الداخل وذراع "سيون" فوق كتفه، قائلًا:

إذا عاد صديقك ثانيةً، فأقترح عليه قضاء الليلة، فهناك متسع في الغرفة 42 يكفي قارّة بأكملها!

سرعان ما حل صليل السكاكين محل الصمت، تمنيت أن يقتحم "روبرت" عبر الباب في أي لحظة، يسبّ عدة مرات، ثم ينصرف كي يتناول الفطور، سيكون ذلك نهاية الكابوس، وانفجار فقاعة الصابون التي تحملها الرياح بعيدًا؛ إلى العوالم المجهولة والمظلمة من السلوك البشري على نحو مدهش، شعرت بالخيانة لأن هؤلاء لم يعودوا نفس الأشخاص، تلك الشخصيات المعذبة المخبأة في أجساد كسيحة، أصبحوا الآن شيئا آخر، ولكن ماذا؟ ربما تعرف "مارجريتا يوزيبوفيتش" الإجابة.

عندما ذهب "سيون" إلى غرفتها في ذلك الصباح بكوب الشاي الساخن، فاجأته الرائحة الرهيبة التي أوقفت قدميه تقريبًا، كان يشرب جرعة من الشاي واستجمع شجاعته كي يدنو من السرير، وعندئذ لاحظ

Twitter: @ketab_n

أن مارجريتا لديها عيون زرقاء ورموش طويلة جدًّا، لاحظ ذلك لأن عينيها كانتا لا تزال مفتوحتين على اتساعهما، كما لو كانت عند تركها هذا العالم أبصرت ما كنا جميعًا نأمل في رؤيته.

كانت زيارتي الأخيرة إلى غرفتها منذ ثلاثة أو أربعة أيام سابقة، كانت نائمة عندما دخلت، وعندما استيقظت صرحت بتواجدي بالعديد من التشنجات المحسوسة بالكاد في منطقة الشفاه، مذكرة بمحاولات الابتسام، جلست لبضع دقائق، فترة طويلة بما يكفي لسيدة عجوز أن تعود إلى النوم، ثم لجأت إلى الخروج مجددًا على أطراف أصابع قدمي، ما حدث بعد ذلك، هناك في شبه الظلام، كل شيء حدث بسرعة، أعتقد أنني لمحت موضوع كوابيسي المستقبلية، أو ربما كان ذلك مجرد خدعة المياة الزرقاء في عيني اليسرى: عندما استدرت حولي وفتحت الباب، تسببت الرياح العاتية في أن تسقط النافذة الثقيلة المغلقة الموجودة بجوار سرير "مارجريتا"؛ كان هناك دويّ عظيم وارتجف زجاج النافذة، وبدا كما لو كان شيئا قد كُسر، ولكن عندما نظرت مجددًا، لم تكن النافذة المغلقة هي ما لفتت انتباهي وانحفرت في ذاكرتي، ولم أخبر حتى "روبرت" بذلك، ولكن كانت رأس مارجريتا المرفوعة عاليًا بدون وسادة، ورقبتها الرقيقة، الجلدية مثل السلحفاة، التي تحمل فكيها الصغيرين وكتلة متشابكة من الشعر الرمادي، بينما تلمع عيونها الزرقاء الواسعة

Twitter: @ketab_n

بغموض فوق الابتسامة التي كشفت عن أسنانها المتعفنة، وفي غمضة عين عاد كل شيء إلى مظهره السابق، وبعدها بلحظة هربت من الغرفة.

كانت وفاة "مارجريتا يوزيبوفيتش" هي النجاة بالنسبة لي، مهما حاولت التعقلن، تحدثني نفسي بفطرتها أن شيطانًا قديمًا سكن في تلك الغرفة الغامضة، ليست السيدة العجوز المعذبة التي تاقت إلى الضيف الأخير، ولكن بدأ شك آخر أكثر عمقًا وأهمية في النمو داخلي في تلك الليلة، كنت على اقتناع متزايد بأن هناك أشياء في مستعمرة الجذام لا أعرف عنها شيئًا: جانب خفي من الأشياء، وهو عكس النظام القائم المستتر بين فئران مجارير الواقع الوظيفي.

بهذه الأفكار في رأسي تحسست الطريق بمحاذاة الجدار إلى أسفل الممر الرئيسي، كانت "مارجريتا" بالفعل في نعشها الذي كان على مائدة الطعام، اختلست النظر من المدخل، كنت سعيدًا أن الغطاء كان موجودًا والجسد مخفيّ، كنت خائفًا من أن مخيلتي قد تعدّ لي حلقة أخرى من الهلوسة، ذهبت إلى الطاولة وجلست على كرسي "روبرت"، سألت:

هل لا يزال في القبو؟

Twitter: @ketab_n

كان الجميع عدا "مستيسلو" يحملون منديلًا على أنوفهم لأن النعش كان ينبعث منه البيان الأخير للسيدة العجوز، تجاهلت الرائحة الكريهة التي لا تطاق وكررت سؤالي:

أين يمكن أن يكون؟

أجاب "مستيسلو":

بالخارج، ربما في رحلة عمل؟

رفرفت عدة مناديل من أجل ضحكات صدئة، نهضت كي أملأ إبريقًا من الماء في المطبخ ثم ذهبت لرؤية "روبرت"، يمكن فتح ترباس الباب من الخارج، إذا لم يمنعني أحد من الذهاب إلى الأسفل، فإن هذا يعني أن أسر "روبرت" كان مجرد لعبة بريئة من ديكتاتور صغير مغرور ورعاياه، تطلعوا لي جميعًا عندما مررت بالماء، قال "مستيسلو":

الدفن ظهرًا، ما زلنا بحاجة إلى حفر القبر، سيكون موضع تقدير كبير يا عزيزي...

أومأت برأسي موافقًا، وظللت أمشي هادئًا، نظروا لي في صمت عندما غادرت المطبخ، وبعدها توقفت لعدة ثوانٍ في القاعة وانتظرت، ولكن لم ينهض أحد، فافترضت أن هذا يعني حرية "روبرت" الوشيكة، وإطلاق سراحه من

Twitter: @ketab_n

السجن داخل هذا السجن، مشيت بأسرع ما يمكنني، واضعًا الإبريق بالأسفل على السلالم، وذهبت إلى باب الزنزانة، وهناك رأيت أمرين: رأس "روبرت" مضغوطة بشدة في مقابل القضبان أعلى رقم 42 مباشرةً، وقفلًا كبيرًا يتدلى من الترباس، لا أعرف ما الذي روعني أكثر - الكدمات الأرجوانية على وجة "روبرت" أم اللمعان النحاسي لذلك القفل الذي على شكل قبضة.

عندما رآني "روبرت" بدأ في النشيج، ومسح الدموع براحة يده، لم أجد ما أقوله، انتزعت القفل وجذبته سريعًا على هذا النحو الذي لا ينتج إلا صراخًا معدنيًّا، خبط "روبرت" على الباب بشراسة، وضغط جبهته بشدة أكثر في مقابل القضبان، عدت للماء، وبللت منديلي، ثم وصلت إلى الداخل بقدر ما أستطيع لأربت على وجهه، وقلت له أن يفتح فمه، وبعد ذلك سكبت بعض الماء من الإبريق، محاولًا صبّ أقل قدر ممكن، وأخيرًا سألته مَنْ الذين ضربوه، فقال إنه لا يعرف هوية الأشخاص الآخرين الذين شاركوا، لكنه كان متأكدًا من "سيون"، و"مستيسلو" الذي ضربه في رأسه، حيث تسللوا إلى فراشه عندما كان نائمًا، واستيقظ على ضربة شديدة في المعدة، وجلب "سيون" كرسيًّا حتى يتمكن "مستيسلو" من الجلوس، وبعدها سألوه عن خططنا للرحيل، ولم يقل لهم أي شيء.

وقال "روبرت":

"لكنهم سوف يعودون اليوم، ستكون فرصتي الأخيرة".

Twitter: @ketab_n

قلت:

"لا تقلق، كل شيء سيكون على ما يرام".

ضحك قائلًا:

"هل سار أي شيء في حياتي على ما يرام من قبل؟".

حذرته قائلا:

"اهدأ، حتى لا يسمعوننا ويسجوننا".

أجابني "روبرت:"

"إذن ماذا؟ ما أهمية ذلك؟ ألا ترى أن كل شيء قد انتهى الآن؟".

قلت له:

"السيد "سموز" جاء، وقد يأتي مرة أخرى".

ظل "روبرت" يضحك، متأرجحًا في الزنزانة ثم سقط في زاوية.

لم أستطع تحمل سماعه بعد ذلك، كنت في حاجة إلى الهدوء، حتى لو كان هدوء دفن "مارجريتا يوزيبوفيتش".

Twitter: @ketab_n

الفصل السابع

ظلت الأحداث التي أعقبت ذلك محفورة في ذاكرتي مثل خليط من مشاهد خشنة من فيلم رخيص. صعدت إلى غرفة الطعام، وكان النعش لا يزال على الطاولة، جاء صوت بقبقة الماء، وضجيج الأواني والمقالي من المطبخ. أما معظم المرضى فكانوا يتشمسون بالخارج، وكانت المعاول تقطع التربة الجافة، حيث يحفر عدة مجذومون ويمسحون العرق عن جبينهم، و"مستيسلو" يشرف على العمل عاقدًا ذراعيه خلف ظهره، وطلب ممن يحفرون التخلص من الحجر الكبير الموجود في الطريق، كان عليهم الحفر حوله من جميع الجهات، وإزالة أكبر قدر ممكن من التربة من تحته، ثم رفعه للخارج بالقضبان المعدنية التي كانت تسدّ جميع نوافذ مستعمرة الجذام من قبل، والآن ترقد في الصدأ بجوار النافورة.

Twitter: @ketab_n

خطوتُ خارجًا إلى الفناء، وتوقفت لبضع ثوانٍ بالقرب من الباب حتى يمكن لعيني التكيف مع أشعة الشمس، أومأ "مستيسلو" بلطف لكن دون أن يرفع عينيه عن الحفرة التي أصبحت أكثر عمقًا، وأشاد بالحفارين عندما أزاحوا الصخرة من الأرض، وسحبوها خارجًا، وألقوا بها عند قدميه. نمت الكومة على الجانب الأيمن من الحفرة أكبر تدريجيًّا، وبعد طبقة من التربة الطينية الحمراء ضربوا شيئًا أصلب، ربما كتلة، اقترح "مستيسلو" أن ينزل شخص آخر في الحفرة، ونظر إلى وجهي، كانت الحرارة فوق الأرض قد خلقت غشاوة كثيفة متجعدة جعلته يبدو كما لو أن ساقيه لا تلامس الأرض ولكنه يرفرف عدة سنتيمترات فوقها، لسع العرق عيني، شعرت بغليان في رأسي، مما تسبب في صوت طقطقة غريبة في أذني، للحظة أردت أن أكون جالسًا بجانب روبرت في ظل قبو مستعمرة الجذام السرمدي؛ سأضغط جبهتي على الأرضية الحجرية الملساء مستمتعًا بالبرودة المتسللة إلى ركبتي.

التقط "مستيسلو" معولًا، وقدمه لي بإيماءة توسل ساخر، يمكنني الشعور بحرارة الحصى تحت باطن قدمي، ولكنها كانت بالمثل ساخنة أينما دوست، كانت أرضية قبر "مارجريتا" الرطبة شِبة مغوية.

لم ينتظرني لاقترب لكن ألقى إلي بالمعول الذي شق طريقه في الهواء حلزونيًّا، كان مقبضه ساخنًا، لم أعتقد أبدًا أن الخشب يمكن أن يسخن

Twitter: @ketab_n

لهذه الدرجة، وقفت هناك على الحافة، أستنشق رائحة الأرض حتى حثّني "سيون" في الخلف بأن علي الإسراع، قائلًا:

"ليس أمامنا اليوم كله".

شعرت كأنني على وشك حفر قبري، مستندًا على الجاروف، قفزت إلى أسفل بداخل الحفرة.

كانت الأرض في الأسفل باردة حقًّا، كنت في داخل القبر أحفر وحدي، بينما الآخرون اقتربوا من الحواف، مما جعله يبدو ضعف عمقه، كنت مندهشًا لمدى طراوة الأرض عندما غرزت المعول فيها أولًا، ألقيت التربة خارجًا، محاولًا عدم النظر إلى العيون التي شكلت إطارًا حول الشمس.

دارت رأسي، لكنني حاولت التركيز في الحفر والحصول على أفضل أساس، وقال "مستيسلو" شيئا ما، واستمع الآخرون بانتباه إليه، ولكنني لم أسمع كلماته، كنا كما لو أننا منقسمان إلى عالمين بالفعل، الأحياء والأموات، وتشعّ كتل التربة الكبيرة بخارًا عندما ألقيها في الشمس، بقليل من الخيال. تخيلت نفسي أحفر طريقي إلى الجحيم. في مرحلة ما سيصبح غشاء الأرض رقيقًا جدًّا لدرجة ألا يتحمل وزني، وستنبثق النيران خارجة من خلال الشقوق، سأسقط عبرها مع صرخة، وسيصفق المتفرجون، أعادني إلى هذا العالم كلمتان من "مستيسلو":

Twitter: @ketab_n

"كفاية. أخرج".

فكرت في سدوم وعمورة، أمدّ يدي حتى يتمكن شخص ما من انتزاعي، ومساعدتي، ولكن الجميع علقوا رؤوسهم، كان "مستيسلو" يتحكم في الأمور جيدًا، تحرك الجميع إلى الوراء نصف متر وانتظروني حتى أتسلق خارجًا مثل أحد المخلوقات العتيقة التي يكتشف علماء الحفريات بقاياها في عمق الصخور، وقال "مستيسلو":

"قبر جميل، ويناسبك".

أجبته:

"نعم، إنه جميل".

وصل القبر حتى صدري، وضعت المعول على الأرض خلفي، ودفعت في مقابل المقبض وتأرجحت ساقاي عاليًا إلى مستوى الأرض، علت صَفّارات الإنذار من المصنع داعية العمال إلى تناول طعام الغذاء. وقفت أمام "مستيسلو" ممسكًا بالمعول، مدت الضوضاء الرهيبة من الوقت كالعلكة، كان ينبغي أن يحدث شيء.

عندما توقفت الموسيقى، فكرت، وأمسكت بالمعول بإحكام أكثر، أفسحت الجلجلة طريقًا إلى الصمت، ومشى "مستيسلو" ببطء إلى حافة

Twitter: @ketab_n

الحفرة، ووصل إلى طيات ثوبه وسحب جواز سفري، ورفعه عاليًا فوق رأسه كأنه كأس استولى عليه من العدو، وألقى به في القبر، في تلك اللحظة حط غرابُ عقعقٍ كبير على سقف الكنيسة وثرثر بعدة مقطوعات شعريه قاسية. انحنى "مستيسلو" وأخذ حفنة من التراب الجاف تقطرت من بين أصابعه ورمى بها في الحفرة، مغطيًا جواز السفر الأحمر في القاع .

لو لم يكن بسبب ضحكة "سيون" الساخرة وقتها، ربما كان ردّ فعلي مختلفًا، ولكن ذلك أزّم الأمور، وسأحلم بهذه المشاهد القليلة المقبلة لبقية حياتي:

انحنيت كي أرى أين انتهى جواز سفري، كانت حافتاه بارزتان من تحت كومة صغيرة من الأرض، وكأنه قبر صغير في أسفل القبر الكبير، صرًّ صوت "سيون" الحادّ في طبلة أذني، وكانت الشمس في ذروتها أعلى رأسي، أمسكت المقبض الخشبي للمعول بحزم، وفتحت عيناي على اتساعهما كي أرى "مستيسلو" بشكل أفضل، ثم رفعت النصل البيضاوي فجأة، وظل معلقًا في الهواء لعدة ثوانٍ، ينظر الجميع إليه، ثم شاهدوه وهو يتأرجح إلى الأسفل نحو رأس "مستيسلو"، ويقطِّع شرائح في وجهه عبر منتصف الأنف وأسفل خده، ولم يبدأ الدم في التدفق إلا عندما سحبته. كان هناك تهشيم في العظام عندما سحبته، أولًا أصبحت ذراعا "مستيسلو" مشلولتان،

Twitter: @ketab_n

وحركتهما مجمدة، أغمض عينيه عدة مرات وانهار على الأرض في وضعية الجلوس، كما لو أنه يأخذ قسطًا من الراحة، وكان لا يزال يتنفس، تدحرجت فقاعات لامعة من الدم من أنفه. كشف هلال الدم على المعدن المسطح عمق الجرح المميت، الآن يملأ الدم فمه وينسكب إلى أسفل ذقنه، مقطرًا على الأرض بين ساقيه، تابعت عيناه البقع على الأرض، واندمجت ببطء في بقعة داكنة واحدة، وأطلق صرخة مكتومة، تشنجت ذراعه اليسرى، وكانت تلك علامة حياة "مستيسلو كاسويزك" الأخيرة.

سميت هذا الحدث باسمه الملائم فقط بمجرد أن استرجعت جواز سفري من الحفرة باستخدام نفس المعول، ونظفته من التراب، ووضعته عميقًا في جيبي. القتل؛ فكرتُ للمرة الأولى متطلعًا بخدر إلى الآخرين الذين انسحبوا جميعًا قبل تحديقي كما لو كانوا مدفوعين بقوة مادّية، لم يقترب أحدهم مني: كانت كل هذه مصارعة الثيران الدموية ملكي، تراجعوا خطوة أخرى إلى الخلف عندما التقطت المعول مرة أخرى، وبدأت في دفع الجثة الهامدة، بعد عدة دفعات نشطة هبطتْ إلى قبر "مارجريتا". فنظرت إلى أسفل ومسحت العرق عن جبيني، ثم أخذت نفسًا عميقًا وكسحت مجروفة التراب الأولى على معدة "مستيسلو"، وبعده كان الأمر سهلًا، أكثر قليلًا واختفت ساقاه، ثم الجذع، والآن وصل التراب إلى ذقنه مباشرة، أدركت أنني كنت أؤجل اللحظة التي سأزيح فيها التراب وكتل التربة الجافة على وجهه المشوه، ولكن لم يكن ممكنًا أن

Twitter: @ketab_n

ينتظر إلى الأبد، بمجرد أن تأرجح الضوء وأصبح المجروف المتراكم سحابة محمرّة تحلق نحو رأسه، غطت عينيه المفتوحتين.

لم يكتشف أحد أبدًا لماذا توقفت فجأة وألقيت المعول، ولا حتى هؤلاء الشهود الواقفون أقرب يعرفون، لأنه بطبيعة الحال كان الشاهد الوحيد هو أنا، وطمأنت ضميري باستنتاج أنه لا مجال للعودة إلى الوراء في كل هذا، وأن عيني "مستيسلو" أغمضت فحسب بسبب بعض تشنجات ما بعد الموت المتأخرة، ولم تكن هناك طريقة أفضل لانتحال عذر لحركات هؤلاء المؤمنين بالموت، وحاولت نسيان تدحرج عينيه، وانعكاس الشمس اللامع عليهم، والرعب الذي ملأهم عندما تحركت مجروفة من التراب نحو وجهه. ظننت أنني سوف أشعر بالنجاة عندما غطيته كله، الآن هناك ملامح فقط في التراب بدلًا من الجسد، مثل بدايات نحت غير مصقولة من تمثال شخص مستلق: عملي الفني، ولكن غير مكتمل، لأن التراب المحصب على الفم بدأ في الحركة ثم الوقوع في الحفرة الصغيرة، كان فم "مستيسلو" ينفتح آخذًا آخِر امتلاء له، ألقيتُ بنفسي على كومة التراب وضغطتُ إلى أسفل التربة الساخنة بجسدي. لم يكن أحد في الفناء يشاهد أكثر من ذلك، فقط جلس "سيون" على حافة حجر النافورة ومسح دموعه بأكمامه، واختلس العديد من المرضى الآخرين النظر من النوافذ لكنهم يختبئون في الظلام كلما نظرت إلى أعلى.

Twitter: @ketab_n

وسرعان ما أصبح القبر في مستوى الأرض، وكانت العلامة الوحيدة على الحفر بقعة رطبة سرعان ما جففتها أشعة الشمس القوية إلى نفس لون بقية الأرض، فكرت في أن هذه الأرض بلا شائبة، وجلست بمحاذاتها منتظرًا أن تصيبني موجة التوبة، ذلك الألم الخفيف في المعدة، وربما الدموع، والدوخة، والصداع..أيًا كان، لكن لم يكن هناك أي شيء، فقط التفكير في أنني يجب أن أحرر "روبرت" بأسرع وقت ممكن، ثم حفر قبر آخر؛ هذه المرة من أجل "مارجريتا يوزيبوفيتش".

عيني.. المحروقة بشمس منتصف النهار، يمكنها أن تتكيف مع الظلام داخل المبنى بصعوبة، تهرب الظلال دون النظر لي في الممرات، وسمعت خطوات سريعة وصرير غلق الأبواب، توغل الموت وأزعج سلام مستعمرة جذام أوروبا الأخيرة.

بمعول في إحدى يداي، تلمست طريقي بمحاذاة الجدار الرطب المؤدي إلى القبو، أطللتُ عبر قضبان الغرفة 42 ولكنني لم أتمكن من رؤية صديقي، افترضت أنه نائم بالأسفل بجوار الباب، تراجعت مترًا أو اثنين، ووجهت ضربة قوية إلى القفل، انشق مقبض الباب الخشبي إربًا، ودوَّى صرير المعدن في فضاء السقف العالي، وعندئذ فقط سمعتُ التمتمة المتشنجة الناعسة من الداخل، أزلت القفل المكسور وسحبت الترباس إلى الخلف. جلب الباب المفتوح رائحة البراز البشري الكريهة؛ كان "روبرت"

Twitter: @ketab_n

جالسًا في الزاوية على يمين الباب، وكان يرتجف مثل القط المبلول، حاولت أن آخذ بيده وأجذبه من قدميه، ولكن ثبت أن ذلك مستحيل، ورفض أي تواصل، فجلست بجانبه وتركت رأسه تستند إلى صدري، وبدا أنه فقد الكثير من وزنه، برزت عظام وجنتيه عدة سنتيمترات خارج وجهه، وعلى عنقه كان يمكنني التقاط الجلد الرخو بين أصابعي، وعندما رفعته وحملته خارجًا، كشف لي ضوء الطابق الأرضي الخافت شرائط من اللون الرمادي في صدغيه لم تكن هناك في اليوم السابق، وكان من السهل تصور غرفة 42 كحفرة من الوقت أمضى فيها صديقي الليل متلويًا تحت الهراوات والأوامر القاسية من النازيين الذين كانوا هنا قبل عقود، كنت أفضّل ذلك لأن قصة "روبرت" في الواقع قد تجاوزت بكثير غرابة ما أتخيله من قصص الجانّ.

وضعته في السرير ولففته ببطانية حتى ذقنه، كان "سيون" لا يزال جالسًا عند النافورة يعض أصابعه، لا أحد يقترب من قبر "مستيسلو"، ولا حتى الكلب الأسود الذي كان يريد التغذّي على بقايا "زولتان"، لم يكن هناك أي علامة على الحياة في مستعمرة الجذام، قبر "مارجريتا" في حاجة إلى الحفر، لكنني كنت أخشى ترك "روبرت" وحده، لا يسعني إلا الشعور بأننا ما زلنا في قارب صغير واقعين في مخالب ضخمة لأحد وحوش البحر، فكرت أنه يمكن خنقه بسهولة بوسادة في الحالة التي كان فيها، كنتُ جالسًا على سريره، شعرت من ارتعاد رأسه المفاجئ

Twitter: @ketab_n

والطريقة التي تدور بها عيناه.. إنه في كابوس، حرَّك شفتيه الجافتين، وكلما حاولت ترطيبهما بمنديل لفّ رأسه بعيدًا وسحبها تحت البطانية.

استيقظ فجأة، في نفس اللحظة التي كانت تندفع فيها أنياب صفراء إلى حنجرته، ذاهبة إلى الوريد الودجي في العنق، كان مربوطًا في السرير، ولا يمكنه الفرار. مِن مَنْ؟ مِن ماذا؟ لا يمكنه التذكر.

الأنياب هي كل ما تركه الحلم ..

وتنهَّد، كان يشرب قليلًا من الماء وجرعة من شاي الدردار بناء على إصراري، ثم بدأ يحكي لي أحداث الليلة السابقة، لم أكن متأكدًا ما إذا كان يكتشف حلمًا آخر أم يقول لي ما حدث حقًّا، ولم يكن هو نفسه متأكدًا، لكن الشيء الوحيد الذي كان متيقنًا بشأنه هو الخوف الذي عانى منه، والشيب، وعدة الكيلوجرامات التي فقدها من وزنه بسبب محنته.

قال روبرت بشهيق متكرر:

-حدقت عبر القضبان وشعرت بتورم في وجهي، هؤلاء الحمقى ضربوني بعنف بالتأكيد.

كان يفرك صدغيه كما لو كان يمكنه الشعور بالخطوط البيضاء بأنامله، جالسًا على أرضية الغرفة 42، استنتج أن حياته كانت مصيبة

Twitter: @ketab_n

واحدة كبيرة، تؤدي به إلى التفكير في طفولته، لكن باختصار فقط، كان سيفجر دماغه لو كان لديه مسدس، كانت الرصاصة ستحفر عبر جمجمته وتصنع نقرة في الجدار الذي كان يملس على سطحه بأصابعه، شعرت أصابعه بالحروف المنحوتة في الحجر، ولم يستطع قراءتها، بسبب الظلام الدامس. كان يداعب هذه الكلمات، وربما جملة كاملة منها، ويتساءل ما الذي حدث للشخص الذي كتبهم. وعبر قضبان الباب التقط تيار هواء، حيث يمكن أن تثير نافذة مفتوحة أو بابٌ موارب الهواءَ في مستعمرة الجذام بسهولة، وضغط وجهه مقابل القضبان سامحًا بأن يداعبه الهواء المتدفق من الظلام، فالأكسجين جيد لبشرة المجذوم.

أغلق عينيه وحاول تصفية ذهنه، ولكن الجهود الواعية من هذا القبيل عادة ما يكون لها تأثير عكسيّ، وسرعان ما احتشدت رأسه بالأشخاص، والشفاه، والمناظر الطبيعية التي نسيها منذ فترة طويلة من شوارع وطنه في مدينة "جينسفيل"، بـبرلين، طعم القهوة وبضع كلمات ألمانية تذكرها، لم يكن يعرف ما الذي جعله يفتح عينيه فجأة، مثل امرأة تحلم فقط أن الغرباء خطفوا أولادها، سمع ضوضاء وشيكة التي تعني - كما عرف الآن - وجود كائنات أخرى وليست حركة الهواء. وبلغ هذا الشخص الناحية الأخرى من القضبان، وكان على يقين من أنه لم يره من قبل، ولكن كان رد فعل الشخص معبرًا عن الألفة، كان "روبرت" خائفًا مثل الطفل الذي حلم للتوّ بأنه تم اختطافه. كان يرتعد، وانزلق وفقد

Twitter: @ketab_n

الاتصال مع الأرضية، الجزء الخلفي من رأسه مهشم في مقابل الجدار، وكان خائفًا من فتح عينيه مرة أخرى. كانت كل خلية في مخه تخفق بألم، وحولت ملايين النجوم المشعة الضئيلة تجويف جمجمته إلى مجرة من المعاناة التي لا تطاق، وعندما أغلق عينيه وفتحهما مجددًا، كان وجهه لا يزال على القضبان: اتسعت تكشيرته ببطء إلى ابتسامة ناقمة، وقهقهة قاسية، ووابل من كلمات غير معروفة ملأت الغرفة.

لا يعرف "روبرت" كم من الوقت استمرّ ذلك، ولا كيف انتهى، تذكر وضع يديه على أذنيه ولكنه لم يكن قادرًا على وقف الضجيج المروع، ركض في أرجاء الغرفة، من جدارٍ إلى جدار، حتى سقط مرة أخرى فاقدًا وعيه، وكان الشيء التالي الذي سمعه هو الضرب على الباب، وخدش المعدن وصوتي ينادي باسمه.

عندما أنهى قصته استند إلى الخلف على الجدار وأخذ كتاب "زولتان" المقدس من على الرفّ، لم يقرأ ولكنه ببساطة قلب الصفحات، متسائلًا:

"أين هم؟".

أجبته:

"مَنْ؟".

Twitter: @ketab_n

قال "روبرت" جاريًا بإصبعه بمحاذاة سطور سفر التكوين:

"ثلاثون ناقة ومهورهم، وأربعون بقرة، وعشرة ثيران، وعشرون حمارة، وعشرة فرسات".

"أنت تعرف مَنْ .. المخنثين، سأنال منهما".

لقد أراد الانتقام، ولن يهدأ حتى يضربهما بوحشية، قال مهددًا:

"أرادا الفرار بدلًا منّا، سألوني عن اتصالاتي في الخارج، ولكنني سوف أرسلهما إلى حيث يستحقان، سوف يتعفنان في قبو".

ترددت في إخباره عن "مستيسلو"، أحببت أن أقول له إن الفأر مات وانتهى بفضلي، كنت سأخبره مباشرة لو لم يكن يتعين عليّ إخباره بوحشية ما حدث، لم يكن هناك مبرر حقيقي. هل كانت حياتي في خطر؟ بالكاد، وهو ما جعلني أشعر بعدم الارتياح، لقد تم ذبح "مستيسلو" في النهاية مثل حيوان بدلًا من قتله في غضب نزيه.

كان قيظ آخر النهار الصيفي مثيرًا للنعاس، يد روبرت تقلب في الصفحات الرقيقة باتزان، ها نحن مرة أخرى، عدنا إلى شرنقة الحياة اليومية الدافئة: كانت البساطة الآسرة للأيام غير المهمة وسلام هذا القبر الكبير من الأشياء التي استمتعت بها نوعًا ما، ناضلت كي أحافظ على

Twitter: @ketab_n

عيني مفتوحة، ولكن العنكبوت الصغير نسج خيوطه ببطء إلى أسفل بطول الجدار، وسقطت في نوم بلا أحلام. عندما استيقظت كنت وحدي في الغرفة، كان "روبرت" قد ذهب، والكتاب واقف مفتوح وعمودي عند رأس السرير.

تصاعد صوت مدوٍّ من الفناء، في البداية بدا بشريًا بالكاد، مما جعلني أعتقد أنه طائر كبير قبيح بشكل غير طبيعي كان يرفرف حولنا ويحرق، من سيؤذي مثل هذا الطائر؟

قفزت إلى النافذة، كان "سيون" يزحف على الأرض، و"روبرت" يقفز من حوله، يركله وينحني ليقول له شيء ما، و"سيون" يتأوه ويستنجد ماسحًا الدم عن وجهه، ولكن روبرت لم يتوقف، بل سعى إلى ضربه في أكثر الأماكن إيلامًا: سلسلة من الركلات في الأضلاع، ثم في الرأس، ثم في الأضلاع مرة أخرى.

ركضت إلى أسفل الدرج واندفعت في طريقي بين حشد المتفرجين على الباب؛ خطوت أمام "روبرت" فاردًا ذراعي على اتساعهما لصد هجماته، فطلب مني التنحي جانبًا، لأن لديه حسابًا يريد تسويته. أمسك "سيون" ساقي وضغط رأسه في سمانتها، حاولت الابتعاد، ولكن انتهى بي المطاف إلى جرجرة "سيون" معي، قلت له أن يبتعد عني، وصرخت فيه، لكن خوفه لم يدعني أفلت منه. لم يعد "روبرت" يحاول النيل منه ولكن وقف يشاهد

Twitter: @ketab_n

كيف ستنتهي قصتي الدرامية الصغيرة. دفعت رأس "سيون" بيدي محاولًا إبعاده، لكن ذلك جعله يتشبث بي بإحكام أكثرشعرت بألم شديد ولوهلة لم أكن أعرف مصدره، وما الذي يؤلمني في الواقع، أخذت خطوة أخرى قبل أن أدرك أخيرًا أن المتوحش قد عضني ويتشبث بأسنانه فيّ، إذا لم أبعده سريعًا فسوف يقضم جزءًا من ساقي، لكمة على رأسه ليست الحل الوحيد، لكنه كان الوحيد الذي فكرت فيه في ذلك الوقت، خبطة، وخبطة، لكنه يطبق أسنانه بإحكام أكثر، انحنيت وضربته بكلتا يداي، حتى أفلتني الطفيلي أخيرًا. رأيته يقهقه لنفسه في فرح ناقم، فالتفتّ كي أضربه مرة أخرى، ولكن "روبرت" كان أسرع: جاء سريعًا بعصا حادة الطرف تصنع نوعًا من صوت الطقطقة، وعندها توقف الحقير عن الضحك، وتدفق الدم من جرح جديد، فأدار وجهه نحو الشمس وحدق فيها بعينين نصف مغمضتين، تخيلت أن النجم في عينيه لونه أرجواني رائع.

التقطت يد "سيون" المشلولة وقست له النبض، تأوه كما لو كان يُداس بالأقدام، لكنه كان لا يزال على قيد الحياة، الفأر، قدمه الاصطناعية انخلعت ووقعت على بعد عدة أمتار، أعدت تركيبها مجددًا في جذعه، وضحك "روبرت" لأنني وضعتها في الخلف بدلا من الأمام بالخطأ.

أخذت "روبرت" من ذراعه وعدنا إلى الغرفة، لم نلتق بأحد في الطريق باستثناء رائحة جثة "مارجريتا" العفنة. زمجر "روبرت" قائلا:

Twitter: @ketab_n

"إنهم خائفون، ينبغي أن يكونوا".

وصرخ قائلًا:

"أنت تعرف الآن من هو الزعيم هنا".

سألته:

"من هو الزعيم؟".

قال:

"نحن الزعيم".

رابتًا على ظهري، كان يشعر بتحسن كبير، وأصبح في مزاج جيد مرة أخرى، وبينما كنا نسير في الممر صَفَّرَ بنغمته المفضلة.

ولكن عندما نظرت من النافذة ورأيت "سيون" يسحب نفسه نحو الباب، كنت مغلوبًا بالشفقة، وسعيدًا لأن العجوز الحقير لا يزال على قيد الحياة.

"روبرت"، لماذا تعين عليك ضربه ضربًا مبرحًا بهذا الشكل؟".

أجابني:

Twitter: @ketab_n

"لم أقصد، كنت أدخره لـ"مستيسلو"، صدقني؛ لكن النساء والأطفال والعجزة؟ أبدًا!...".

وأقسم قائلًا:

"التقيت "سيون" في الممرّ، وسألته: أين "مستيسلو"، هرش الغبي في خصيتيه، أو على الأقل في المكان التي كانتا فيه، وأراد أن يعرف إذا كنت قد أمضيت ليلة سعيدة، وسألني بذلك الهمس القبيح الذي ربما منحني هذه السلاسل من الشعر الرمادي: أظنه هو الذي كان يجرّ قدميه حول الزنزانة".

"طاردته في أرجاء الغرفة، وحاصرته في غرفة الطعام، ثم جررته إلى خارج الفناء و...أنت تعرف الباقي".

رتب "روبرت" سريره وأكد أنه سوف يبحث عن "مستيسلو" لاحقًا، وقال مهددًا، صافعًا بقبضته راحة يده:

"ربما ذهب كي يختبئ في الكنيسة، لدينا وقت أكثر من كافٍ، وهو لن يفلت من العقاب".

قلت:

"مستيسلو" ذهب".

Twitter: @ketab_n

لكن "روبرت" لم يعرني التفاتة، كان يظن أنني أذيع تهديدًا فحسب، فقلت مجددًا:

"لقد مات".

قلت معدّلًا الصياغة:

"قتلته بالمعول، إنه مدفون بجوار "زولتان"".

ابتسم صديقي متشككًا، فأزعجني تشككه، كما أكد لي أيضًا أنه لا يريد قتل "كاسيويزك" حقًّا: خطوة خطيرة خارج دائرة أمان الأعمال المسموح بها.

منذ ذلك الحين بدأت أرى نفسي كقوة محركة خلف كل هذه الأهوال؛ ومزلاج صغير على أبواب الشرّ، فَرَضَ "روبرت" فكرة الرحيل، وحولتها إلى فيل متوحش نحتاج لأن نمتطيه ونترك "أتلانتيس" الألم هذه، دون أن يسمعنا أحد، كيف يمكننا إعادة ترويض وحش غاضب؟

ذهب "روبرت" إلى النافذة، وتطلع نحو قبر "زولتان"، متسائلًا:

"هناك؟ إلى جانب الرجل العجوز؟".

أومأت برأسي موافقًا.

Twitter: @ketab_n

لبضع لحظات حدق صديقي في وجهي كما لو كنت قاتلًا متوحشًا، وقد كنت كذلك في الحقيقة، على الأقل في تلك الدقائق القليلة عندما كسرت جمجمة "مستيسلو" ودفنته دون حتى الطقوس المعتادة غير المجدية. تركت "روبرت" مع نفسه، وعدت إلى القبو من أجل المعول، رائحة الجثة المتحللة الكريهة تملأ أروقة طابقنا أيضًا الآن، يتعين عليّ دفنها في أقرب وقت ممكن، أدركت أنني أنظر إلى المرأة العجوز باعتبارها نوعًا من المتعاونين في اضطرابات "مستيسلو"، وهو ما كان السبب في أنني لم أكن مترفقًا، خصوصًا عندما أخذت النعش من على الطاولة وسحبته إلى مكان الحادث بجوار الكنيسة، حفرت حفرة غير منتظمة بعمق متر واحد كي تبتلع آخر ذكريات "مارجريتا يوزيبوفيتش"، بينما جلس "روبرت" جادًا في ظل الكنيسة، ومن وقت لآخر يتطلع، ويبدو كما لو أنه تذكر شيئًا ويريد قوله، لكنه سرعان ما يعيد نظره إلى الأرض، متتبعًا بعينيه مسارات يمكنه وحده متابعتها.

كان الظلام قد حل عندما وضعت الأدوات، وظهرت بثور حمراء كبيرة مليئة بالقيح والدم على راحتي يدي، نفضت الغبار عن ملابسي كما لو أنني أحرر نفسي من هذا اليوم، فكرت أنه لم يعد هناك أي شيء على حاله بعد الآن، ودعوت "روبرت" كي يأتي وينضم لي في غرفة الطعام. صنعت براد شاي كبيرًا واحتسيت المشروب الساخن الذي أعاد لي السلام المفقود لبعض الوقت، صببنا لأنفسنا المزيد، وانضم إلى قرقرة الشاي

Twitter: @ketab_n

فجأة لحن النشيد الوطني الروماني الحزين الصادر من مكبرات صوت المصنع، كان عمال الوردية الثانية ينكّسون العلم الذي يكرهونه جميعًا.

أضأت الأنوار، فقال "روبرت" إن الظلام كان أجمل، لذا أطفأتها مرة أخرى، وضع كوبه، أخبرني أنه ما زال يتذكر تلك الرائحة، العطور الإيطالية في زجاجات كبيرة مدهشة؛ تذكرنا الكونياك الفرنسية الغالية، كانت "مارثا" تحب فركها على جسمها بعد الاستحمام مباشرةً: قطرة مركزة تستقر في راحة يدها، ثم تنشرها بعناية محركة أصابعها بشكل حسي في جميع أنحاء جسدها، وفي إحدى المرات سمحت لـ"روبرت" بفعل ذلك، الآن أفكر في رقصة "برامز" الهنجارية السادسة، وضحكة عالية لامرأة جميلة يهتز نهداها، وتنحدر الأصابع على بشرتها الرطبة. حاولت تخيلها مستلقية على طاولة غرفة الطعام وأنا ألمس جسدها الرائع، وأرى نهديها، وعضلات ومنحنيات بطنها، ولكن بدلًا من شفاهها الممتلئة، وخديها الورديين رأت عين خيالي التكشيرة الرهيبة لـ"مارجريتا يوزيبوفيتش" فحسب، وهو ما أجبرني على إضاءة النور مرة أخرى. فوجئ "روبرت"، ومسح الدموع، ثم واصل البكاء ووجهه مدفونًا في يديه، أدركت أنه لا جدوى من محاولة تهدئته، وهو ما دفع الدموع إلى عيني أيضًا، تركت صديقي وذهبت إلى غرفتنا. بعد عدة ساعات من التحديق في السقف، أخبرني أنه كان يبكي بسبب "مارثا"، لم تكن مجرد ذكريات عادية لشيء جميل انتهى، بل على العكس، في تلك الليلة

Twitter: @ketab_n

كشف "روبرت" الحقيقة العارية، الصعبة والثقيلة، التي اضطهدته لسنوات، والآن يريد تقاسم هذا العبء.

مرة أخرى قصة حبسه القصير المشؤوم في برلين، الحدث الذي دمر حياته، وتذكر الزنزانة النتنة، والأذرع القوية الملساء التي جرجرته إلى أسفل ممر طويل ثم إلى أعلى في رحلة الدَرَج، وحتى الآن لم يذكر أبدًا الباب الموارب، وشريط الضوء المائل على الأرض، وقال إنه سمع حوارًا، صوت ذكوري جهوري سعيد يتحدث بأدب مع امرأة، ويبدو أن الرجل قال نكتة تنطوي على لعب بالكلمات، ولم يفهم "روبرت" الكلمات، لكنه يتذكر أن الشابة ردت بضحكة عالية، إيقاعات مبحوحة معروفة لروبرت وتنتهي بارتعاشة صوت خفيفة، همهم "روبرت" برقصة "برامز" الهنجارية رقم 6، وتخيلت ستة من "مارثا جولبرجس" يرقصن، ويرفعن أرجلهم عاليًا بطريقة الكان كان، تخيلت خيانة.

Twitter: @ketab_n

Twitter: @ketab_n

الفصل الثامن

يزعم أستاذ واثق يدعى "هوارتشيس بورتوس تيرسينو"، وهو عالم بارز ومتخصص في الأمراض المعدية (لكنه يبدو بالنسبة لي أشبه بمدرب كرة قدم محلي في فريق بامباس الأرجنتيني ولا يوحي بالثقة كثيرًا)، أن أقدم آثار جذام تم العثور عليها بين "أوسترالوبيثيكوس". وتثبت تجاويف مسامّية في الفقرات العنقية من بقايا متحجرة وجود بكتيريا الجذام العَصوية بوضوح. بيدي اليمنى فركت رقبتي، وبيسراي قلبت صفحات الجريدة الطبية، عدد (أبريل 1985)، قدمت الفقرات الأخيرة تفاصيل مثيرة للاهتمام من التاريخ الطبي، قالت إنه قبل أكثر من ثلاثة آلاف سنة ولف الصينيون نوعًا من المضادات الحيوية من أوراق نوع من شجر البلوط - انقرض بعد ذلك - استخدموه لمكافحة البكتيريا. هراء،

Twitter: @ketab_n

أعتقد أن مثل هذه التقارير تخترعها الحكومات من أجل الحفاظ على ثقة الجنس البشري في الحضارة، القصص عن الحكمة والحضارات القديمة هي عكاز عقلي للمساعدة في ملء خزانات الصرف الصحي من التاريخ البدائي، فكرت في ذلك بينما كنت أسحب سروالي الداخلي.

كانت قطعة من البراز المغطاة بالدم ملقاة في المرحاض، بينما لا يزال "روبرت" مرهقًا في الحجيرة المجاورة، ولكن الأنين الذي سمعته لا يرتبط بحركات الأمعاء الناجحة التي ترسل خدر التخفف إلى عمودك الفقري. يفرغ "روبرت" أمعاءه مرة أسبوعيًّا فحسب في أحسن الأحوال، معدته مدمرة، وهضمه بطيء، والعضلات الداعمة للأمعاء الغليظة ضامرة، وهي مشكلة شائعة، نصحته بحذو حذوي وتناول كميات كبيرة من "القراص" المطهو على البخار وأوراق "الهندباء البرية"، ولكن بعد أكل بضعة ملاعق من الخليط الأخضر سب وتقيأ كل ما أكله، وكانت تلك إحدى صفاته التي أعجبت بها دائمًا، على عكسي، لم يقبل "روبرت" أبدًا حتى بأكثر التنازلات عادية عندما يتعلق الأمر بعلاج مرضه، رفض باستمرار أمبولات العلاج الهضمي الفعالة نوعًا من التي لا بد من حقنها في الأرداف، كما رفض علاج تقرحات وجهه ببوله. كان يحمل صليب الجذام بكرامة، رافضًا أن يكون مرضًا في شكل إنسان، مثل آخرين كثيرين، والإصرار على أن يكون إنسانًا مصابًا ببكتيريا الجذام العصوية.

Twitter: @ketab_n

كان شاحبًا ومرهقًا عند عودته من الحمام، وكان لا يزال ممسكًا ببطنه ووجهه متألم. كان من الواضح أنه لم ينجح، وهذا أثر بشكل كبير على مزاجه لأنه ليس من السهل تحمل كيس من الخراء داخل جسمك، كنا مسجونين هنا، واضطر لتحمل سجين آخر في داخله. خرج للتمشية في الفناء لكنه تجنب القبور بجوار الكنيسة، كان الجميع يتجنبونها، كما لو كانت مثوى ضحايا "فلاد الثالث المخوزق" الملعونين، وليسوا ثلاثة جثث تأكلهم الدود، سألت نفسي أيهما أسوأ.

استمرت حرارة شهر أغسطس طوال شهر سبتمبر، وكان التمثال البرونزي للملك "ألكسندر جون الأول" مقياسًا ناجحًا للحرارة، فإذا كنت قادرًا على وضع يدك على الوجه المعدني الساخن لمدة تزيد عن ثلاثين ثانية، فإن ذلك يعني أن الشمس تلين، مهما كانت درجة الحرارة في الخارج، لم تتمكن أشعة شمس الخريف من تسخين الملك الروماني القديم بنفس القدر، ولكن كما قلت، كان سبتمبر هذا استثناء، سافرت أسراب من الذباب بلا راحة بحثًا عن الطعام، وكان من المستحيل إخراجهم من غرفة الطعام والحمامات، يوميًا غيوم من الانتحاريين الصغار ينحدرون على جبينك بحثًا عن شربة من العرق، جلبت الرياح الشمالية، المعتادة في هذا الوقت من السنة، سحبًا من مركبات النتريك التي تسبب شعور بالحرقان الخفيف في الرئتين، لذا كان علينا غسل لحاء الدردار في الماء البارد للتخلص من المواد الكيميائية، ولم يعد هناك

Twitter: @ketab_n

وجبات جماعية في غرفة الطعام، ولا تجمعات حول النيران، ولا طقوس شرب الشاي، يجيء السكان من أجل حصصهم اليومية الضئيلة ويأخذونها عائدين إلى عزلة غرفهم.

كان "سيون" الوحيد الذي يأكل بالقرب من قبر صديقه وحبيبه الميت، مر بجواري أنا و"روبرت" كأنه لم يرنا، حتى طرق الباب بعد ظهيرة أحد الأيام، قائلًا:

"أريد أن آتي معكم".

لم يرد على جملة "روبرت":

"اغرب عن وجهي يا خنزير".

فقط انحنى كي يتجنب الحذاء، ثم كرر نفسه بهدوء، وأغلق الباب ورحل.

لم يكن هناك أي أثر لسيد "سموز"، لاحظت أن "روبرت" يخرج إلى السياج كل صباح كي يمر على الشجيرات ويخرج إلى السهل الضبابي، كان هناك نوع من الاتفاق الضمني بيننا: ألا أسأله عن رحيلنا، وألا يذكر قتل "مستيسلو" والأحداث المصاحبة.

كنا جميعًا منشغلين باضطراد بالحصول على الغذاء بسبب عدم انتظام شحنات الصليب الأحمر الدولي. وافترضت أن السائقين يعطون

Twitter: @ketab_n

العلب الكارتونية إلى الفلاحين في مقابل الدجاج أو بضعة كيلوجرامات من الحبوب، فالقمح الذابل والذرة المكسورة في الحقول يبشران بشتاء جوع، وكل هذا أدى بنا إلى أن ننظر بعيون مختلفة إلى قطعان الغنم العجفاء المنحدرة من الجبال، كانوا متجهين نحو المدن كي يُحلبوا أكثر، وإلا سيُذبحوا. في البداية لم أفهم لماذا أهدر "روبرت" عدة ساعات في شحذ اثنين من سكاكين المطبخ الكبيرة في الفناء، ولكن "سيون" تخلف عن وجبته وجلس بالقرب من قبر "مستيسلو" في ذلك اليوم، خائفًا بوضوح من نوايا صديقي المحتملة .

أيقظني "روبرت" قبل أول ضوء، ورمى السكين على السرير ولوح لي من الباب، كنت لم أزل مترنحًا بالنوم ومشوشًا. فكرت أن صديقي سوف يذهب من غرفة إلى غرفه قاطعًا رقاب زملائنا المجذومين وهم نيام، تخيلت بقعًا أرجوانية تنتشر على الشراشف البيضاء، وقلة تمكنوا من الصراخ، لكن معظمهم تمكنوا من فتح أعينهم فحسب، استيقظوا بدفء الدم وصعوبة مفاجئة في التنفس.

شعرت بالارتياح عندما رأيت روبرت يعبر عدد من الأبواب في الطابق الأول، قبل أن يواصل إلى الطابق الأرضي ويجلس لاهثًا في انتظاري، لكن ما زال الأمر غير واضح بالنسبة لي لماذا سحبني من السرير مبكرًا للغاية. هززت كتفي ومددت ذراعي أملًا في تفسير لذلك، لكن بدلا من استخدام

Twitter: @ketab_n

الكلمات، أمسك "روبرت" السكين، وتظاهر بسحبه عبر حلقه، ومأمأ مشيرًا إلى الباب، كان القطيع يمضغ النباتات القصيرة، والذرة النابتة بالقرب من السياج، تجمعت النعاج مع حملانها حول كبشين كبيرين أقرنين كانا يبحثان بجدّية عن أغصان "البتولا".

أشار "روبرت" تجاههم وطلب مني جمع بعض النعناع النابت في ظل الكنيسة، غرزت سكيني في الأرض وبدأت في جمع بعض السيقان. عندما جاءني "روبرت" أخبرني بخطته التي بدت بسيطة بما فيه الكفاية، ستخفي السكين في حفنة من الأوراق العطرة، وتغري الحمل، وعندما يقضم الأعشاب العطرية سوف تشق بالسكين من الخلف عبر حلقه.

قفزنا من السياج، كان من الواضح أن الخراف مروّضة نوعًا ما، ظلت تمضغ النباتات الخضراء النضرة وشعرت بنا بالكاد، علت الشمس الآن في الأفق، وبدا صوفها الأبيض واضحًا تمام الوضوح. اقترب روبرت من حمل انفصل عن أمه، تودَّد إليه، ولوح له بباقة النعناع كما لو أنه يحاول تنويمه مغناطيسيًا، ثم تأكد من كون السكين مخبأة جيدًا، وتحرك عن قرب. وعندما قرر الحيوان البائس أن يأخذ القضمة الأولى ثم بشراهة قضم الأوراق بصوت عال ممددًا عنقه السميك، قطع "روبرت" بحركة قوية في المكان الصحيح بالضبط، رشرشت دفقة من الدم على الصوف، مما جعل الخروف يصنع صوتًا مختلفًا الآن، بدأ في الركض، وبعد عدة ثوان لاحقه

Twitter: @ketab_n

"روبرت" وسكينه مرفوع، عندما حاول الحيوان الاختباء تحت جسم أمه التي ترعى، دفعته بعيدًا بأنفها كما لو أنها شمت وجود الموت، وأدركت ببساطة أنه لا بد من قبوله. أصابتني طريقتها الشبيهة بغاندي بخيبة أمل، بشكل غريزي ركضت نحو ذلك الحمل، وأمسكته من قفاه، وكنت على وشك وضع النصل عندما دوَّت طلقة، فقبض "روبرت" على الحمل الذي كان لا يزال يقطر دمًا، وبدأ في الجرى. كان الرجل بعيدًا في الحقل، أطلق طلقة أخرى والعديد من الشتائم باللغة الرومانية، وكان من المهم قفز السياج، الحد الوهمي بين العالمين، الذي مقابلته تترك دائمًا ذكريات قبيحة، أو أسوأ، وتلك البديهية مؤكدة هذه المرة أيضًا.

ذهب الرجل ضئيل الحجم أشعث اللحية إلى قطيعه، ربت على عدد من النعاج، ثم أمسك إحداهن فعلا ثغاؤها أكثر عندما جرَّها من قفاها بعيدًا عن الأخريات، فهمنا أنها كانت التي فقدت حمَلَها. جذب زناد بندقيته، ووضع برميلًا أعلى رأس النعجة وضغط على الزناد. فجرت رصاصة من العيار الكبير جمجمتها إلى أشلاء، ارتعشت ساقاها وانهارت. شاهدنا الرجل عبر ثقب في جدار الكنيسة، جاء إلى السياج دون استهداف، وأطلقت عدة طلقات على المبنى، أصابت الحائط العاري تاركة ثقوبًا ملحوظة. لعن المجذومين، وقال إنه سيقتلنا جميعًا إذا اقتربنا من غنمه ثانيةً، مشى بعيدًا متذمرًا، وكان عليّ كبح جماح "روبرت" لئلا يصعد، وترتيب الأمور معه مرة أخرى، قال "روبرت:"

Twitter: @ketab_n

"دعه يقتلني على الفور إذا أراد، هذا الحقير الغبي مثل النعجة".

كنا نعرف أن الراعي قتل الخروف لأنه لمسها المجذوم، لو كنت في مكانه؛ ربما فعلت الشيء نفسه. شاهدناه وهو يبتعد محدثًا جلبة وتاركًا نفثات دخان خلفه من غليونه الكبير.

كانت ملابس "روبرت" منقوعة في الدم، ألقى بالحمل على الأرض وحدق نحو قبر "مستيسلو"، حفرة ضحلة مستحدثة في التربة. كان الجسم - المدفون دون نعش- يتحلل صانعًا فراغًا تحت الأرض، نظر "روبرت" إلى يديه وشم رائحة الدم في أصابعه، فدفع الضأن بقدمه بعيدًا، وأصبح مغطاة بالتراب، ثم ركض إلى الكنيسة. سند نفسه مقابل الجدار الهش بكلتا يديه وبدأ في التقيؤ، كان ذلك شعوره الحقيقي تجاه موت "مستيسلو."

صرخت فيه:

"كان لا بد أن أفعل ذلك! وإلا كنا سنتعفن معًا في القبو".

ردت معدة روبرت بتشنج عظيم طرد مخاطًا أكثر خَضارًا.

حملتُ الخروف من أرجله الأمامية، ورأسه ملتوية جانبًا، وازداد فتح الجرح العميق الذي برز منه الشريان المبيض ومجموعة من الأوتار العضلية المقطوعة، إنسان أو حيوان – جميعهم نفس الشيء، وأعتقد أن الأساليب

Twitter: @ketab_n

فقط هي التي تختلف، فذبح خروف منفصل عن أمه، أصعب كثيرًا من قتل عدو يواجهك، كما إن إلقاء سرطان البحر حيًّا في الماء المغلي أسوأ كثيرًا من صدم رجل عجوز يعبر الطريق من المكان الخطأ عفويًّا. أليس كذلك؟

عاد "روبرت" إلى الغرفة من أجل راحة يستحقها عن جدارة، تاركا خلفه الخروف الميت، والشمس، وسرب الذباب. كان الحيوان يحتاج إلى سلخه وإخراج أحشائه، واضطررت إلى التغلب على اشمئزازي – فرغم كل شيء، كنا جياعًا، وحاولت أن أتصرف كما لو كنت قوي الإرادة: وجدت قطعة قديمة من الأسلاك وربطت رجليه الخلفيتين معًا، ولكن ماذا بعد ذلك؟ شعرت فجأة بالعطش وذهبت إلى غرفة الطعام لشرب بعض الماء، الكثير من الماء.

لم أسأل "روبرت" أبدًا إذا كان قد قتل رجلًا من قبل، لم يكن عندي فرصة لأسأله أبدًا، اليوم فكرت في أنه اختار ضحيته بعناية، واستخدم السكين بكفاءة، تلك الحركات تتحدث عن الخبرة كما بدا لي. بقليل من الخيال يمكنني رؤيته يسرق خفيرًا، يقدِّر الصورة الظلية الداكنة ويحدد موقع الأذرع والأسلحة، والحلق، يشعر بدفء الجسم، ويسمع تنفسه، وصوت علبة السجائر وإشعال الولاعة الذي يضيء الجبين، يغلق عينيه لأنه لا يريد رؤية وجه عدوه. تعود ولاعة السجائر إلى جيبها، تسيطر يد

Twitter: @ketab_n

"روبرت" على مقبض السكين، خطوتين أو ثلاث صامتة، ثم ذراع ممدودة، ونصل يلمع...

علقت الحمل من الحلقة الحديدية البارزة من الجدار الجانبي لمستعمرة الجذام، نظرت إلى الذبيحة، غير عالم من أين أبدأ، لا يمكنني تقرير النهاب إلى المعدة أم إلى العمود الفقري. هاجمني الذباب، واستخدمت النصل في الفقرات العنقية، راسمًا خطًّا إلى أسفل الظهر. أمسكت حواف الجلد التي خرجت بمحاذاة القطع وسحبتها إلى أسفل، بدت كأنها ورقة سميكة ممزقة، وتحتها اللحم صالح للاستهلاك بلونه الأحمر الغامق. شرّحت أسفل الساقين، ثم طعنت في المعدة فسقطت الأمعاء وانبسطت على الأرضية. الكبد والمثانة معلقان متشابكان، أصبح الذباب أكثر وحشية، واضعًا ملايين من اليرقات. عربدة الحياة الصاخبة، لاهثًا وقفت أمام الذبيحة التي امتدت وتحورت بطريقة ما، فما كان حمَلًا بدا الآن وكأنه كلب. كان ال الفم المسلوخ لديه أسنان، مما جعل المخلوق يبدو كأنه يضحك.

غرزت السكين في الفخذ وجلست كي أرتاح، لكنني حتى قبل أن ألمس الأرض سمعت الإطراء والبهجة من الشجيرات القريبة.

-برافو برافو .

Twitter: @ketab_n

فوجئت بأن لدي جمهورًا، تحركت الفروع، وكنت أتوقع الراعي الملتحي وطلقة تسقطني أو تشوهني أكثر. نافضًا قطعًا من الأوراق الجافة عن ملابسه، اقترب من السياج: كان السيد "سموز"، لقد كبر في السن، مر وقت طويل منذ رأيته أول مرة عن قرب، الآن قفز السياج، وبينما كان يسير نحوي ارتدى قفازات مطاطية رقيقة وقدم لي يده التي ذكرتني بكيف كانت مصافحة الجسم السليم، فعَلِقت بعض آثار الدماء الجافة على المطاط الرقيق، قال لي وهو يقدر حجم الحمل بعينيه:

-أحسنت صنعًا، سيكون طعمه طيب بالتأكيد.

ما زلت لم أقل شيئًا، لم أكن أعرف كيف أشعر حياله، تدحرجت الكرة واستقرت في مكان ما بين الكراهية ونوع من..

مسرور لرؤيتك مرة أخرى لأنك سوف تساعدنا على الخروج من هنا.

قدم لي سيجارة، ثم أعاد العلبة مرة أخرى إلى جيب سترته دون انتظار الرد.

الصبر. الصبر. فقط الصبر .

قالها وأشعل سيجارته، لم يكن لهب الولاعة مرئيًا في ضوء الشمس الساطع، سألته:

Twitter: @ketab_n

- هل أنادي لك على "روبرت"؟

- لا، لماذا؟ إنكما أصدقاء، أليس كذلك؟

أومأت، فواصل قائلًا:

يمكنك أن تناديني "مارتن".. "مارتن" سوف يفعل.

سألته فجأة بعد لحظات قليلة:

مارتن؟

كان ردّه الودي:

- نعم؟

- لا شيء، قلت، أجربه فقط.

أطفأ سيجارته، وكانت جبهته جافّة، لكن يده باردة كجثة، مما منحنى انطباعًا أنه مكرس لمهام خدمته، لكنني تخيلته أيضًا مكرسًا للمتعة، وأعزب، ومحبًا لكل أساليب الأسرار الدنيوية.

- "إيرينا"، زوجتي... أنت لا تعرفها للأسف. "إيرينا" تعتقد أن الضأن ألذ أنواع اللحوم.

Twitter: @ketab_n

يقولها مربّتًا على الفخذ الأحمر مما يبعد الذباب.

يشير إلى صدره كما لو كان فخورًا بالحقيقة، ومضيفًا:

لكنني لا آكل اللحم، أنا نباتي، وإلا افترض أنك كنت ستلحّ علي كي أبقى لتناول العشاء؟

أجبت:

بالطبع، اعتبر نفسك مدعوًّا.

قال متنهدًا:

-شكرًا لك، لكن ليس لدي وقت، فقط كنت أمرّ، هناك الكثير من الالتزامات؛ مهامّ، وواجبات، ورحلات عمل. اعتدت المرور من هذا الطريق في كثير من الأحيان، لكن في الآونة الأخيرة أصبحت الأمور أكثر تعقيدًا. لقد مُنحت ترقية، ورغم أنه مشكوك فيها فإنني سأكون في المنصب لمزيد من الوقت، الأمور تتغير وتصبح خطيرة.

سحب السكين من فخذ الخروف وواصل قائلًا:

أفكر فيكم، سوف أفي بوعدي لكما حتى لو كلفني حياتي.

أشهر السكين ثم غرسه أعمق في الضأن قائلًا:

Twitter: @ketab_n

-عندما أجيء لأراك في المرة القادمة سنرحل معًا، لقد أحضرتك إلى هنا، وسوف أخرجك من هنا أيضًا.

أشعل سيجارة أخرى، وقال :

هناك الآن سائق، بالمناسبة: إنه أنا.

سألته مستغربًا:

-متى ستأتي؟ وكيف؟...

ولكنه قاطعني قائلًا:

كلا، لا بد أن تتحلى بالصبر لفترة أطول قليلًا.

بدا خائفًا من الأسئلة. أطفأ سيجارته وقفز السياج، صائحًا قبل أن يختفي في الشجيرات:

تذكر، المرة القادمة.

قلت مضطربًا، ومشيرًا، ورافعًا يدي مودعًا:

المرة القادمة.

Twitter: @ketab_n

لا تزال القفازات المطاطية البيضاء معلقة على السياج، كأن ظهور مارتن كان جزءًا من خدعة الساحر، ظننت أنني من الأفضل أن أنهب وأخبر "روبرت" على الفور بكل شيء، لكنه كان قادمًا نحوي سريعًا، سقط على ركبتيه وحرك فكه، كان لديه شيء يقوله لي، تمتم:

"سيون".. "سيون" قتل نفسه .

كنت مشغولًا بتفريغ أمعاء الحمل، ولم أتوقف، معي الآن القلب، وبينما كنت أتناوله بدأ الدم السميك المركز التنقيط منه. جلس "روبرت" على الأرض وشاهد حركات السكين، هذه هي المرة الثانية التي تتزامن فيها زيارة "مارتن" مع الموت، بقليل من الخيال، يمكنني أن أتخيله باعتباره أحد تجسداته. قطعت رأس الحمل بضربة سريعة، لم أكن أبدًا مولعًا بهذا النوع من الغموض، إذا كان لي أن أتخيل تجسيدًا أرضيًا للموت، فإنه سيكون دائمًا سلحفاة "جالاباجوس" العجوز بعيونها الملتهبة التي تحركت ببطء نحو هدفها لكن بعناد، ينشر داخلُها اللحميُّ رائحةً كريهة لا توصف، فر منها البشر والحيوانات أجمعون. تخيلت مثل تلك السلحفاة العملاقة تنسحب بعيدًا من تحت أقدام "سيون" الذي كان يتلوى، وفي حشرجة موته يندم على ما فعله، أعتقد أن الأمر دائمًا يسير هكذا.

فككت اللحم من على السلك، أمسك "روبرت" الطرف الآخر وحملناه إلى غرفة الطعام، ها هو الحمل قد انتهينا منه، ثم ذهبنا لنحصل على "سيون"،

Twitter: @ketab_n

فككناه من على السلك لنحمله إلى غرفة الطعام، انغرس المعدن عميقًا في حلقه. كان لديه مشكلة في ربط قدميه معًا، فقط كي يتأكد ثَبّت السلك في الدعامة المركزية، ولفّ الطرف الآخر حول رقبته ثم قفز من على كرسي متأرجحًا من اليسار إلى اليمين، أدرك أنها المرة الأولى في حياته التي لم تلمس قدماه الأرض فيها.

أخذ "روبرت" الجذع، بينما حررت الرقبة، انزلق الجسم من قبضته قليلًا، وترنح بينما يحاول الاحتفاظ بها عموديًّا، ثم سقط على السرير، وانتهى به المطاف على ذراع "سيون"، ثم سأل:

لماذا يموت الجميع وعيونهم مفتوحة ؟

مرر يده على وجه "سيون" كي يغلق جفونه المتورمة، ولكنها انفتحت مرة أخرى من تلقاء نفسها، قلت له:

طبيعي.

فسأل "روبرت" :

ما هو الطبيعي؟ أتسمي هذا طبيعيًّا؟ لا أصدق، اللعنة!

وخطا من جدار إلى جدار. لففت "سيون" في شرشف وحملته من تحت ذراعيه، وبعد الترنح به لمدة دقيقة تعاون "روبرت" وأمسك

Twitter: @ketab_n

عقبيه، لا أحد يجرؤ على الخروج إلى الممر، رغم أن البعض أمسك بابه مواربًا بخجل وأطلّ.

بعد أن كنا وضعنا يديه وقدميه على الطاولة (اللحم موضوع على كرسي)، أخذ "روبرت" قطعة قماش مبللة مرة أخرى إلى الغرفة لمحو كلمات "سيون" الأخيرة، المكتوبة بالفحم على الحائط فوق سريره:

لقد رحلت قبلكم في النهاية !

الأحرف الكبيرة التي كتب بها وضعت إثم هذا الموت الإضافي على أكتافنا مباشرةً، بعد ذلك جاء الحفر، بجوار قبر "مستيسلو" مباشرةً، في تلك اللحظة تغير الطقس فجأة: جاءت الغيوم من الغرب، حاملة مطرًا باردًا مطردًا كهدية من الجبال، لففنا "سيون" في شرشف بعد آخر، ووضعناه في عشرة سنتيمترات من الماء في قاع الحفرة، دفن في الوحل، وقفنا فوق القبر، وميز صمتنا تحيتنا الأخيرة. نظرت إلى السماء وبدأ الرعد، جلدت قطرات المطر الكبيرة وجهي، آلاف القطرات، وبدأت الأرض الدافئة في التبخير، حتى ارتفعت ستائر الضباب ببطء فوق السهل، وبدا المبنى الحجري المكون من ثلاثة طوابق مثل سفينة تائهة في الضباب.

كانت هناك عتمة، ذهب "روبرت" من أجل الحصول على بعض الشموع من مخزن المطبخ، وجلسنا على أسرّتنا في ضوء الشموع المرتعش

Twitter: @ketab_n

نستمع إلى المطر، غالبًا ما تُذكر مثل هذه المواقف "روبرت" بطفولته المبكرة، والدته ولدغات الأفاعي التي كان فخورًا بها، قضمنا قطعًا من الخبز المحمص المتعفن، الذي غسلناه بالشاي البارد.

قاطعت "روبرت" عندما كان يصف كيف اعتاد الحصول على فحم الكوك من آلة بيع في محطة وقود عن طريق إدخال خمسين سنتًا مقابل عبوتين من البيرة حتى يتمكن من الوقوف عليهما والوصول إلى زر الكوك، أخبرته أن السيد "سموز" جاء، فلم يُفاجأ، قلب في صفحات الكتاب المقدس بلا اكتراث، ثم مشى إلى النافذة ونظر إلى الظلام في الخارج، ثم قال مقلدًا صوت "مارتن" لفترة وجيزة:

في المرة القادمة، ذهبت.

وقال إنه عندما سيأتي لرؤيتنا مرة أخرى سوف نرحل معه بالتأكيد.

أضفت إنه سوف يقود السيارة، لكن بدلًا من الرد سمعت صوت تمزيق الورق الخشن، كان روبرت يسحب بحذر شديد من الصفحات ويطلقها كي تطير في الليل مثل الحمائم، أحيانًا قد تعود واحدة بعاصفة من الرياح وتنتهي على الأرض أو على سريري، "ووقفت على رمل البحر، فرأيت وحشًا طالعًا من البحر له سبعة رؤوس وعشرة قرون، وعلى قرونه عشرة تيجان، وعلى رؤوسه اسم الكفر".

Twitter: @ketab_n

سأل "روبرت" :

ماذا سنفعل باللحم؟

كان لا يزال يمزق في الصفحات، وكنت أرغب في الردّ ببعض الحكم الإنجيلية التي تتضمن الضأن، فهناك المئات منهم، طالعت الصفحات الممزقة: كلب، سمك، حمام ... لكن لا ذكر للحم الضأن. تراجع "روبرت" خطوة وقفز قفزة سريعة، ثم دفع ما تبقى من الكتاب المقدس في حجاب سميك من الظلام والمطر.

انطفأت الشموع، أغلق "روبرت" النافذة وجلس على سريره مرة أخرى، الآن يمكننا سماع الأصوات القادمة من داخل مستعمرة الجذام أكثر وضوحًا، وسمعت شيئًا أكثر من مجرد صفير الرياح عبر عقب الباب وصرير الماء في الأنابيب الصدئة. بحث "روبرت" عن الكبريت، أضاء وميض محمر وجهَه المتورم.

كلاب، إنها الكلاب.

نباح حادّ مفاجئ جعلنا نبدأ، أنين منافس في ألم وكراسي تُخبط في غرفة الطعام، مزقت الفكاك الجائعة اللحم إربًا، لقد مزقوها وابتلعوا قضمات كبيرة منها، مدفوعين إلى الهيجان بطعم دم الحمل العفن، انتظرنا أن تهدأ حديقة حيوان قليلًا وأضأنا شمعة أخرى، العرق اللزج على بشرتي يفوح

Twitter: @ketab_n

منه رائحة الخوف الغريزي، الذي تختلف رائحته عن عرق بذل الجهد أو التعرض إلى الحرارة، وتشم بعده رائحة الملح الجاف، وتشعر تقريبًا بتوتر لطيف على سطح الجلد. لعقت راحة كفي الأيمن، فكانت مُرَّة حامضة، وكان كفي مجعدًا، ومقشفًا وخائفًا مثل حياتي، وكذلك كان "روبرت". احْتَرَقت الشموع وانطفأت. وهدأ المطر، واستطعنا سماع خدش مخالب الكلاب على سطح الممرّ الحجريّ، تخيلت اللسان الأحمر متدلِّيًا، والرائحة النتنة للحم نصف المهضوم تتعقبه. واقتربت الزمجرة الماكرة من بابنا، وخدشت مخالب الكلاب القذرة في الخشب القديم، ولهثت الكلاب، وضربت بانتظام بكفوفها كما لو كانوا يحفرون حفرة ويعرفون يقينًا أنهم سرعان ما سيأكلون مجذومين عجوزين. لم نتزحزح من أسرّتنا لكن حدّقنا في اتجاه من قد يكونا قاتلينا، التقطت صفحة مجعدة من الأرضية وأمسكتها بالقرب من الشمعة، وعلى ركبتي، بدأت أقرأ:

"وكان الوحش الذي رأيته كالفهد، وقدماه كأقدام دبّ، وفمه كفم أسد: ومنحه تنين قوته، وكرسيه، وسلطة كبيرة، قاطعني النباح، ثم اندفع لسان طويل تحت الباب، وضرب الوحش الباب بمقدمة رأسه بشراسة."

قال "روبرت:"

استمرّ في القراءة.

Twitter: @ketab_n

سألت:

لماذا؟

قال:

لقد رحلت نعمة الله من هذا المكان.

أجبت:

كلا، إنه أنت وأنا من كان لا بد أن يرحلوا عن هذا المكان منذ فترة طويلة.

انتزع "روبرت" الصفحة بغضب وصفق بها بين يديه كي يبسطها، تخطى عدة سطور، وبدأ في قراءة الفقرة بدايةً من تدخل الله وسحق الوحش ذي السبعة رؤوس، وتصاحبه جوقة من الكلاب، الذين - مثل الفئران العملاقة - اتخذوا المبنى كله قبل هبوب العاصفة، لا بد أن هناك العشرات منهم، تخيلتهم يختبئون معًا ويدفئون أجسامهم الملوثة بالخراء، يلعقون أنوفهم ويستمتعون بسلامة القطيع. كانت الذكور نشطة، والكلبات القذرات يتأوهن مستسلمات لطعنات القضبان الحمراء الرفيعة، والمني الأصفر يطرطش داخلهن، وحدثت عدة حالات حمل ناجحة في تلك الليلة الشريرة.

Twitter: @ketab_n

توقف المطر، كان هناك رعد بعيدًا في السهل إلى الشرق من مستعمرة الجذام، هدأ النباح، ونهض "روبرت" وطرق على الباب بصوت عالٍ، لا ردّ من الجانب الآخر: ربما ذهبوا، قلت له إنه يجب عليه الذهاب إلى هناك والتحقق، لكنه خلع رداءه الكتان وتسلل تحت البطانية، كان يحتاج إلى النوم، استدار مرتين أو ثلاثًا كي يجد الوضع الأكثر راحة، ثم تنهد عميقًا وتمنى لي ليلة طيبة. كانت قدرته على النوم إحدى سماته الأساسية الأخرى التي تكيفت بالسنوات التي قضاها في هذا المكان.

بعد دقيقتين أو ثلاث دقائق، سمعت صوت تنفسه الثابت وهسهسة مرور الهواء عبر فتحات أنفه المشوه. كانت الشموع تحرق آخر شمعها، وكان لهيبها طويلًا وطرفه أسود، أنطفأت واحدة تاركة شريطًا مزرقًا من الدخان، ثم ماتت الأخرى أيضًا، وملأت رائحة حلوة ومثيرة الجو. فكرت أنني آمن طالما أن الباب مغلق، ووضعت رأسي على الوسادة، لا شيء يمكن أن يعمل بآلية المزلاج البسيطة، سوى الإنسان. كانت الحيوانات جائعة، والطبيعة مسنونة حتى الكمال، كانت هنا رومانيا، وأوروبا هناك، في اتجاه قدمي. كان الخوف مفيدًا، والكتاب المقدس يطفو في بركة موحلة في الفناء، اشتقت إلى الحلم بتحليق سرب طائرة البوينج.

حلمت بـ"مارتن"، كنت أركب حصانًا أخضر، جوادًا بعشب مقطوع بعناية بدلًا من الشعر، كنت ألعب مع "روبرت" الجولف على تلك الخضرة،

Twitter: @ketab_n

كنا صغيرين مثل البراغيث، لكن ركض الجواد منعني من الضربة السليمة، صوبت الكرة، فتأرجحت وغابت، واهتز كل شيء.

كانت يد "روبرت" تهز كتفي، استيقظت وحصان أخضر كبير في رأسي، صداع أخضر كبير، كان لدى "روبرت" حلقات داكنة تحت عينيه، والنافذة مغسولة بالضوء، بينما لا تزال عدة صفحات من الكتاب المقدس عالقة بالزجاج من الخارج، كدليل على الليلة السابقة، الأحرف الصغيرة منقسمة إلى عمودين يشبهان جيشًا ضخمًا كما يظهران من السماء، والمقاطع منسقة من أجل المعركة، أما رقم الصفحة في الأسفل فكان جنرالًا عظيمًا.

فتح "روبرت" النافذة وخلع الصفحات المعجونة بالماء، هزها، ووضعها على سريره، وحاول قراءتها، ربما شعر بالأسف لما فعله. قلت:

ما زال هناك الكثير تحت سريري.

ناظرًا إلى السماء، كانت الشمس مختنقة بالسحب الكبيرة، داكنة الأطراف الرمادية، وعبر غرابان النافذة. فكرت في الحصان الأخضر مرة أخرى، سرعان ما ستحصل الطبيعة على ألوان جديدة؛ الصباغات البنية من الغابات واصفرار اضمحلال الحقول العقيمة .

Twitter: @ketab_n

عندما نزلنا إلى غرفة الطعام كان في استقبالنا بقايا الوليمة الدموية ورائحة براز الكلب النتنة، إلى جانب ما تبقّى من عظام الحمل، هناك أيضًا جثة كلب نصف مأكولة.

قال "روبرت" :

- ربما تركوها على سبيل التبادل.

وذكرني بأن الصينيين يأكلون الكلاب، نظرت إلى الأحشاء المتناثرة ولكزت اللحم بطرف حذائي، متسائلًا:

طازجة؟

قال "روبرت" :

إنه مجرد ضأن بأسنان طويلة وصوف قصير، الفخذ وزاوية الفك أرقّ قليلًا، الفروق تكاد لا تذكر.

لوهلة اعتقدت أنه جادّ وسيأكل بشهية من اللحم دون أدنى تفكير، كان يشاهد في صمت وأنا أغلف الذبيحة بغطاء المائدة الكبير، ثم وخزت الأجهزة النافرة بالشوكة وأعدتها إلى التجويف المشقوق في البطن.

Twitter: @ketab_n

قلت لـ"روبرت" متخيلًا "أبو الهول" المصري يمشي بشموخ في السهل الروماني بخطوات عملاقة:

علينا القيام بالمزيد من الحفر، لا بد ألا نتركه بالخارج غير مدفون، سوف تجذب الرائحة المزيد من الحيوانات، من يدري من أي نوع.

استمرت الكلاب في العودة، لكننا الآن أغلقنا نوافذ وأبواب الطابق الأرضي بإحكام، ركضوا في جولة وجولة حول المبنى، باحثين عن فضلات طعام، واختفوا مرة أخرى قبل الفجر. أما "روبرت" فقد كرس نفسه لاستعادة الكتاب المقدس، جمع الصفحات الممزقة، وتركها كي تجفّ وفردها بين طبقات من الورق المقوى المثقل عليه بقوالب طوب، سأذهب إلى غرفتنا لتقابلني فسيفساء سفر الملوك الأول.

قال "روبرت:"

بضعة أيام أخرى وسيكون الكتاب المقدس واحدًا مرة أخرى.

كما لو كان يريد التكفير عن كل خطاياه التي ارتكبها وأيضًا تلك التي تنتظره، كما لو أنه أعاد كتابة السفر بنفسه، هذا التفاني هدأ ضميره.

قبل الذهاب إلى الفراش استعرض عمل اليوم، ممسكًا الصفحات بالقرب من ضوء الشموع كما لو كان يبحث عن معاني خفية مطبوعة

Twitter: @ketab_n

بحبر سري بين السطور، ثم وضع السِّفْر وحزمه مثل حفنة من الأوراق الملفوفة على الرفّ فوق رأس السرير وأغمض عينيه.

ساد الصمت، غمر المطر الأرض يومًا بعد يوم، وكان اليوم مثل الآخر، اتخذت البرك في الفناء أشكالًا معينة، عاكسة قصاصات موحلة من السماء الرومانية، يتقيأ المصنع بملء فمه دخانه الأسود الذي يسافر فوق السهل كالحراس.

تظهر صورة "تشاوشيسكو" الآن ابتسامة مختلفة نوعًا ما، كما لو أن زوايا فمه قد تراجعت قليلًا إلى أسفل في حزن، كما أظهرت وجنتاه المحمرتان للغاية صبغة خضراء.

كانت نتيجة المظاهرات العقيمة أن خمسة رجال شرطة يحرسون الآن سقف مبنى المصنع الرئيسي في دوريات صباحًا ومساء، مدججون بالسلاح ويرتجفون من البرد.

لم أكن متأكدًا في صف مَنْ كنت، عندما فكرت في العمال تذكرت الحجارة الملقاة على "إينجمار زولتان": على نواياه الطيبة ووجهه المبتسم، أثارت الشرطة نوعًا مختلفًا من الاشمئزاز.

في أحد أيام نوفمبر بعد الظهر وضعت أكياسًا بلاستيكية على قدمي بدلًا من الجوارب، وربطت شريط حذائي بإحكام للغاية، وقفزت السياج

Twitter: @ketab_n

كي أذهب إلى مستودع النفايات، غرقت قدمي في الأرض الرطبة بالعشب الميت، وكان علي مراقبة موضع قدمي بعناية، لذا لم ألحظ أن أحد رجال الشرطة الخمسة كان يجرب منظاره علي، وعندما دوت الرصاصة، اعتقدت فورًا أنه الراعي، نظرت حولي، لكنني لم أر أي غنم، ورافق الطلقة الثانية صوت مثل صوت إلقاء حجر مسطح في الطين اللين، ضربت الرصاصة الأرض على بعد بضعة أمتار أمامي، وتصاعد الدخان من ثقب دخولها الصغير غارقة في الوحل ببطء.

كان الشرطي يقف في الزاوية التي تواجه السهل بالضبط، يمكنه أن يراني بوضوح إذا ما أخذت خطواتي غير المنتظمة ورفعت ذراعي فجأة للحفاظ على توازني على الجزر في الأرض المستنقعية، عندما نظرت إليه لم يبعد وجهه عن المنظار بل لوح باليد التي كانت حتى ذلك الحين على الزناد، ثم أعادها. كان تل مستودع القمامة الصغير أقرب الآن مرتين من مستعمرة الجذام خلفي، لكنني قررت إذا ما أطلق الأحمق النار مرة أخرى فسوف أتراجع، وإذا تسمرت خلف مستودع القمامة فلا بد من الانتظار حتى حلول الظلام كي أستطيع إبراز رأسي مرة أخرى .

أصبح لدى القناص الآن جمهور، وتجمع رجال الشرطة الذين كانوا على السطح حوله، ومؤيديَّ من العمال، الواقفين أسفل صورة "تشاوشيسكو" العملاقة كانوا يلوّحون الآن أيضًا، شعرت كأن عجلًا عنيدًا لا يريد أن

Twitter: @ketab_n

يتحرك رغم كل رؤوس الكرنب الناضرة المقدمة إليه، في الحقيقة لم يكن هناك شيء مقدم سوى رأسي: خذها أو اتركها، إذا قتلني سيكون له عذر بسيط: مجذوم سرق من المصنع، والشرطي متفرغ بجدّ لأداء واجبه .

سحبت قدمي من الطين ببطء، انفجرت الأكياس البلاستيكية، وشعرت أصابع قدمي بالحصى والرواسب الطينية، خطوت أبعد إلى اليمين محاولًا الوصول إلى أرض أكثر جفافًا نوعًا ما. انفجار! صافرة فوق رأسي، انحنيت كما لو أنني أتجنب شيئًا ما آتٍ مع الرصاصة، لم أكن أعرف بأي سرعة يمكنني الجري، كنت قادرًا على القيام بعدة وظائف مادية صعبة، لكن الجري يرتبط ببذل جهد مستمر في جميع العضلات، وخاصة تلك الموجودة في ساقي، التي لا أثق فيها.

استقبل العمال خطوتي الأولى بتصفيق حارّ؛ ورافقت الثانية رصاصة، بينما كنت أركض بكل ما أوتيت من قوة؛ تمنيت أن تصبح مدخنة المصنع برج جرس كاتدرائية وأن تؤلف سحب دخانها وجه الله.

تألمت ركبتي، أصبحت رئتي تفاحة مجعدة وقلبي دودة تحفر داخلها، ركضت في شكل نصف دائرة حول بركة كبيرة تكسوها رغوة بيضاء من النفايات النيتروجينية. تمايلت مستعمرة الجذام صعودًا وهبوطًا كأنها شيء مجنون، طلقتان أخريان؛ واحدة تلو الأخرى، فارتعد

Twitter: @ketab_n

جلد وجهي بشكل غير طبيعي وكلما لامست قدماي الأرض؛ شعرت أنها ستؤتي ثمارها تقريبًا.

أوقفتني ضربةَ قوية وألم كبير، سقطُ إلى الأمام في الوحل بطرطشة وانتظرت أن تأتيني آخر آلام الوعي، الدفء المبارك الذي سيأخذني بعيدًا إلى الآخرة أو إلى أي مكان نذهب إليه، استلقيت لعدة دقائق أخرى أفكر في "روبرت"، ثم حاولت تحريك ذراعي وساقي.

ضلوعي مصابة، وعيني معكرة بحبيبات تخدش أجفاني من الداخل، هززت نفسي، محاولًا الخروج من الأرض الرومانية، ومباشرةً فوق رأسي أدركت القضبان الصدئة من سياج مستعمرة الجذام مخبأة في الشجيرات، لذا كان ذلك هو "السلاح" الذي أوقفني!

لم تظهر الكدمة السوداء حتى اليوم التالي، سمحت لـ"روبرت" بوضع كمادات مبللة ببعض مزيج الأعشاب غير المجدية، سألني "روبرت:"

- هل رأيت وجهه؟

- وجه من؟

- وجه الحقير الذي أطلق النار عليك؟

- كيف يمكنني التعرف علية من هذه المسافة؟

Twitter: @ketab_n

هز "روبرت" كتفيه قائلًا:

لا أعرف، مجرد سؤال .

ثم تابع تصفح الكتاب المقدس، كانت صفحاته مجموعة معًا الآن مرة أخرى.

في وقت مبكر من ذلك المساء تحولت الأمطار إلى ثلوج لزجة، وكان "روبرت" يعاني من سعال شديد منذ عدة أيام ويبصق دمًا، كما فقد سمع أذنه اليمنى، لذا عندما تحدثت أدار الجانب الأيسر من رأسه نحوي، كما حدث تغيير آخر: فبدلًا من النشيد الوطني الروماني الذي كان المصنع يصدح به في نهاية وردية بعد الظهر لعدة سنوات، في 22 من ديسمبر لم يكن هناك إلا الصمت .

Twitter: @ketab_n

الفصل التاسع

لم يكن الثلج هو ما حول الحقول، والمقابر، والمروج، والمنازل إلى منظر طبيعي شتوي خلاب، الثلج الذي يجعل السكون مرئيًّا كالضباب، كلا، ليس ذلك الثلج، ربما ينبغي عزو هذا الانطباع إلى ضعف بصري وحالتي المزاجية المتدهورة للغاية، لكن الحقيقة هي أنني بينما كنت أجرف بعيدًا أكوام من البياض من ركام الحطب بجوار الكنيسة. وجدت مخلوقات في حجم إصبع الطفل، كان الثلج ممتلئًا بالديدان مثل اللحم الفاسد، وكأنه جثة ميتة، هذا السجاد من البياض القذر هو في الواقع جثة ضخمة سرعان ما ستنضح سيولا من النتانة. آلاف وآلاف من الديدان كانت تنخر في بلورات الثلج، وإذا أنصتّ عن كثب فلربما استطعت سماع ضجيج ملايين الفكاك السفلى الضئيلة. وفي الليالي

Twitter: @ketab_n

الصامتة سينفجر ضجيجهم مثل موجة على طول المنحدرات الجبلية ويتردد صداها في جميع أنحاء البلاد، الديدان تنخر في نسيج الوقت.

ألقيت المعول ووضعت قطعًا من الحطب الرطب في دلو، كان "روبرت" يقف في النافذة يراقب ساحة المصنع حيثما يبدأ تجمع العمال كل صباح، خلال إحدى هذه التجمعات تحولت الشرطة إلى الشعب، وقوبلت بعاصفة من التصفيق، بعض العمال أمسكوا بنادق رجال الشرطة، وعقدوا مسابقة رماية ارتجالاية، مطلقين النار على وجة الديكتاتور، فأدركت حينئذ أن وقته قد حان، أمسكت الشرطة زجاجات الفودكا المشبَّرة، وانهار النظام كله. كنا نراقب الوضع بينما كان العاملون في "أفرولاتهم" يحملون أثاثًا مكتبيًا على مزالق تجرها خيول شديدة الهزال. وبدلًا من الدخان الكثيف، ينبعث من مدخنة المصنع على استحياء الآن ضفائر رمادية من الآلات والأفران المطفأة تقريبًا، وفي مبنى المكتب ألقى المخرّبون كل الأشياء غير المستخدمة من النوافذ، أكوام من دفاتر الحسابات تسقط مع ندف الثلج، وفي وسط الهواء تتحول إلى أسراب من الأوراق المرفرفة، وفي انتظارهم لهب طويل. كما تنحرف الأيادي نحو دفئهم، لكن يصفّون أولا الحسابات القديمة مع دفاتر الحسابات، ثم:

عبر بوخارست!

في صباح اليوم التالي تميز التجمع المعتاد بشعارات ثورية جديدة ملونة، كان عدد من الحافلات المتهالكة، والشاحنات ينتظرن لالتقاط حشود من

Twitter: @ketab_n

العمال بأعلامهم ولافتاتهم، التي بعدها سوف ينطلقون إلى مركز الأحداث. وجاءت مجموعات من المزارعين عبر المروج، وانتظرهم العمال بأدب لأنهم كانوا يحضرون وقود الثورة: كميات كبيرة من البراندي محلية الصنع لإعداد البطون الخاوية والرؤوس الفارغة من أجل القضية العظيمة.

عادت المحركات إلى الحياة، انطلق الموكب من أجل الفوز بالحرية، وقفت مع "روبرت" في الشجيرات قرب السياج ننتظر عبور الجماهير المنحنى القريب من مستعمرة الجذام، بدوا شديدي البؤس. أدركت الآن كيف يمكن لسيارتين أو ثلاثة من السيارات القديمة البالية أن تحمل مثل هذا العبء المثير للإعجاب. لم أكن رأيت أبدًا من قبل عددًا كبيرًا من الأشخاص الضامرين معًا. في إحدى الحافلات حطم المحتجون معظم النوافذ، وأبرزوا أعمدة طويلة عليها أعلام ولافتات، وكلما اصطدمت العجلة بحفرة في الطريق، تقافز الجميع داخلها وتمايلوا في انسجام تامّ. وكانت الشاحنة الأخيرة التي تخلفت عن الآخرين وتدفق دخانًا أسود مخصصة للنساء، وعلت أصواتهم بأغنية شعبية حماسية، فتألمت طبلة أذننا أثناء مرورهم.

زحفت جرارات قليلة عبر المروج والحقول المحيطة بها، محملة بمجموعات جديدة من المتذمرين. بدأ الثلج يسقط بكثافة أكبر، كانت الندف أدق، وجاءت في دوامات أكثر سمكًا، كل الأشياء التي انتقلت على السهل اختفت ببطء تحت عباءة بيضاء كما لو كانت الظلمة تهبط كالحجاب من

Twitter: @ketab_n

السماء وتعتم العالم، وكان من الواضح أن شيئًا مهمًّا سيحدث هناك. في شوارع المدينة، شعرت بالرغبة في التمشية في ذلك البياض، بالقفز من السياج، وسحب القلنسوة على رأسي وأنطلق في رحلة على غير هدى، متحتضنًا رحابة المشهد. ستكون تمشية طويلة، سأقابل حيوانات وأشجارًا وتلالًا، وفي النهاية سأقابل أشخاصًا أيضًا؛ عيونهم فزعة، وأيديهم مستعدة لإلقاء الحجارة، وأفواههم محتفظة بالشتائم، أداعب السياج المغطى بالجليد ثم أضغط راحة كفي الباردة على جفوني المتعبة.

اقترح "روبرت" العودة إلى الغرفة، ولوح بيده أمام أنفه، مبعدًا زخَّة من ندف الثلج، والتقط عدة قطع من الحطب المجمد، وسعل لينظف حلقه، وبصق بقعة حمراء في الثلج، كان وجهه مصفرًّا، والتجاعيد بارزة للغاية، وجلد جبهته تقلص إلى ستة أضعاف، تحسست جبهتي غريزيًّا، وعددت أربعة، وللمرة الأولى فكرت كيف أن اقتناعنا بطيئ، والمرض القسري يجعلنا غافلين عن علامات الزمن التي تطوقنا ببطء في بيت عنكبوت العمر، ألقيت نظرة أخرى على "روبرت" قبل أن يدخل عبر إطار الباب المظلم، مشيته المتعثرة، وظهره المنحني تحت مثل هذا الحمل الصغير، متمشيًا داخل أسمك طبقة من الثلوج. شعرت كما لو أن شيئًا مهمًّا سيحدث نتذكره معًا ونحن نعدّ أيامنا الأخيرة.

Twitter: @ketab_n

هسهس الخشب الرطب في النار مثل الفأر المحشور، وألقمتها حفنة من لحاء الدردار الجاف، لم يكن تدفئة الغرفة عالية الجدران سهلًا، علينا استخدام الخشب باعتدال. إذا لم يأت العمال في اليوم التالي، سأحاول الحصول على بعض الفحم من غرفة تدفئة المصنع، ربما لم يبق سوى أجزاء صغيرة، بعدما نُقلت كل الأشياء الجيدة بعد الظهر في أكياس كبيرة، وكي يحافظ على نفسه دافئًا جمع "روبرت" البطانيات من الغرف غير المأهولة حاليًا، لكنني رفضت عندما قدم لي واحدة لأنني لا أعرف أيهم تخص "كيسويزك"، على أي حال يحتاج "روبرت" البطانيات أكثر بكثير مني، أبقاه سعاله مستيقظًا حتى الساعات الأولى من الصباح، وفي الليلة السابقة، لم أكن قادرًا على النوم بسبب صلصلة تحليق طائرة هليكوبتر على ارتفاع منخفض فوق المصنع والقرى المجاورة، خربشت أشعة الضوء الثلج في بحثها عن الطرق والحقول، وبينما كانت تحلق أعلى الطريق السريع، أُطلق عليها طلقات متعقبة، وردت الحشرة العملاقة الطلقات، كانوا بعيدين جدًّا بالنسبة لي فلم أسمع صوت القصف كما ينبغي، بقليل من الخيال يمكنني أن أتصور العالم كله محتلًّا بحشرات في حجم المروحيات، حراس جويّون يطوفون في السموات فوق إنسانية مقهورة، ويعاقبون أي محاولة للثورة، بينما يحدق الأطفال خوفًا في السموات الملطخة بالسواد، وتبكي الأمهات عالمة أن ذرياتهن ستصبح إما من الفرائس أو العبيد، أعرف أنه حتى في عالم

Twitter: @ketab_n

مثل هذا سأكون حيثما أنا حاليًا، وسأحلم بنفس الأحلام وأتحدث بنفس الكلمات، وسأظل مجذومًا.

شعرت بلسعة البرد على اذني وأنفي فاستيقظت،، كنت قد سقطت نائمًا دون بطانيات فوقي، والآن أشعر برقاقات ثلج في مفاصلي، فكرت في بعض الجمرات الملتهبة، والدفء المتحجر من نباتات ما قبل التاريخ، فذهبت إلى النافذة لأرى ما يحدث في المصنع، لا تزال الثلوج متشبثة بالمنخفضات الكبيرة في وجه "تشاوشيسكو"، تبدو كقطرة عملاقة من براز الطيور. اندلعت نيران زاهية في الجزء المحمي من الحديقة، وجلس حولها عدة أشخاص يرتدون زي الجيش الأخضر، كانوا عُزَّلًا، وأحدهم يرتدي معطفًا طويلًا، ويمشي إلى الحافة كل خمس دقائق ليلقي نظرة على السهل، عدت إلى السرير، ألفّ نفسي في البطانيات محاولًا النوم.

عندما استيقظت في منتصف نومي بسبب صوت قصف، قلت لنفسي إنني لم أستيقظ أبدًا من قبل في مستعمرة الجذام على صوت ضجيج طبيعي مثل صياح الديك أو نقر نافذة في مهب الريح، بل كان دائمًا سعال "روبرت" العالي، ونباح الكلاب أو خوار السكان الآخرين؛ أو في أحسن الأحوال كابوس أو أزيز صاروخ، فلا يمكن وصف أيّ منهم باعتباره طبيعيًا بالضبط.

Twitter: @ketab_n

قفزت إلى النافذة مرة أخرى، فوجدت ما يقرب من عشرين من رجال الشرطة يحاصرون المصنع، يخفون أنفسهم وراء أكوام القمامة، يجربون بنادقهم، ولم ينج أحد من إطلاق النار، أحد الرجال يستلقي على الثلوج، لو كنت اقتربت، فلربما شاهدت نهرًا أحمر من الدم يتدفق تحت الجسم مثل ينبوع جبلي، ورأيته يبقبق عبر واد صغير ويغرق في الثلوج، كما برز من نافذة الطابق الثاني ثلاثة رجال بزي أخضر وذراع تمسك مسدسًا.

كان الرجل يوفر طلقاته لذا استجاب لرشقات نارية صاخبة من الأرض بطلقة أو اثنتين، وأشار شرطي محمي بعنبر التخزين كي يوضح للآخرين موقع مدخل جانبي صغير، فأمطروا المبنى بعدة رشقات مكثفة ومشحونة في الفتحة المظلمة بالجدار.

بعد عشر دقائق من الانفجارات والصراخ، قفز رجل يرتدي زيًّا أخضر من فوق منصة عنبر التخزين، وجرى حول حافة السطح، ربما بحثًا عن درج إلى أسفل. أظن أنه سمع وطء الأحذية العسكرية على الدرجات المعدنية، وغريزيًّا أخذ خطوة أخرى خائبة من الصعود إلى خزان المياة الكبير، كان لا يزال على بُعد خطوة من أمام مطارديه، عندما جحظت بندقية من الباب المفتوح، وخلفها أخرى، ثم أخرى أطول.

وضع الرجل بندقيته ببطء، واندفع نحو حافة السطح وبسط ذراعيه، محولًا المعطف الأخضر الثقيل إلى حرملة لها بطانة سوداء

Twitter: @ketab_n

لامعة، رفرفت الحرملة عندما سقط الرجل في الهواء، قفز دون تفكير كما لو كان مقتنعًا أنه سيطير إلى السماء، ركض رجال الشرطة إلى الحافة، لم أر إذا كان الجسد الساقط قد تحرك أم لا، لكن أحدهم صوب وأطلق النار كي ينهي أية حركة قد تحدث، ثم تراجع رجال الشرطة إلى داخل المبنى ولم يطلقوا مزيدًا من الطلقات حتى أظهروا اثنين من الجنود تحت تهديد السلاح، أيضًا موالين تشاوشيسكو ظاهريًا. اضطرهم رجال الشرطة أن يخلعوا زيهم وأمروهم بالهرب عبر الحقول، سمحوا لهم بالابتعاد قليلًا، بما يكفي لاعتقادهم أن صياديهم لن يطلقوا النار وأن تلك الغابة أقرب إليهم مما بدت.

خلع شرطي قبعته وصوب، انهارت الأجساد العارية في الثلج، الرجل الذي أطلق النار سار مقتربًا منهم وببطء سحب مسدسه من الحافظة الجلدية المدلاة على جانبه، رصاصتان لرأسين، موت محقق، واندفعت الديدان السمينة كي تتغذى على الدم الفاتر.

سُحبت ثلاث جثث أخرى خارج المبنى. أسند الرجال الذين يرتدون الزي الرسمي الأزرق بنادقهم على الجدار، ووضعوا القتلى تحت وجه تشاوشيسكو. تأخذ أيديهم بشراهة الآن زجاجة الفودكا، وتعبّ أفواههم بعمق، كي تخفف من حدة الرعب، و تسمح للقتلة بأن يشعروا إنهم بخير

Twitter: @ketab_n

مرة أخرى، وعلى ما يرام تمامًا، كانوا ينتظرون بجوار النار، ثم بمساعدة السائق الذي جاء وصافح كلًّا منهم ألقوا بالجثث عبر باب شاحنته الخلفي.

اندلع شجار، فحص السائق الإطارات وهز رأسه، لا يمكنه القيادة عبر الثلوج بحمولة مثل هذه، لا يمكنه إلا أخذ أربع جثث فقط. أمسك قفازه الأصفر الأقدام العارية الناتئة للخارج وسحبها، وألقى شرطي بندقيته. طوى أكمامه، وألقى الرجل العاري مجددًا مع الجثث الأخرى. صفع الباب الخلفي، ونظف يديه.

وصل السائق إلى مقبض الباب مرة أخرى، لكن قوبل بعقب بندقية كلاشينكوف وعدة ضربات من هراوة.

سعال "روبرت" أيقظه، ووجد نفسه مستلقٍ على جانبه، فرك عينيه وحاول أن يرى كم الساعة، قلت له:

ابق في الفراش حتى أشعل الموقد.

وأشرت إلى شيء تحت فراشه، حيثما كانت كتل شبه جافة من الدم والمخاط المصفرّ تغطي الجزء السفلي من حوض معدني. نظف حلقه مرة أخرى، وأضاف كتلة كبيرة من نفس اللون إلى الطين، قلت إنني سأذهب لعمل بعض الشاي، لكن "روبرت" هز رأسه فحسب، والتقط الكتاب

Twitter: @ketab_n

المقدس من على رف فوق سريره، وضغطه مقابل صدره الذي يفوح منه رائحة العرق، كما لو كان يحاول طرد شيطان يعيش هناك.

خارج المصنع حاولت الشاحنة البدء، دفعها رجال الشرطة، مغلقين عيونهم وأفواههم لتجنب الوحل السميك الذي تثيره العجلات. عندما قابلت الإطارات أرضية صلبة أخيرًا ونفث المحرك عدة سحب الدخان، أطلق أحد الرجال المرتدين زيًّا رسميًّا أزرق بندقيته في الهواء مطلقًا العنان لغضبه، تحمل سيارتهم على جانب طريق المصنع علمًا رومانيًّا به ثقب مكان النجمة الحمراء.

فكرت في أن قد يسمي التاريخ مثل هؤلاء الأشخاص "كلاب الثورة "، وحدقت باندهاش في "روبرت" الذي كان على وشك بصق قطعة أخرى من رئتيه. سألني إذا كان مارتن قد جاء، اختفت السيارة رباعية الدفع بالأربعة جثث خلف أشجار "البتولا". قررت ألا أخبر "روبرت" بما رأيته في صباح ذلك اليوم، لأنه سيضايقه أكثر.

كان من الصعب عليّ تخيل إلى جانب من سينحاز "مارتن"، كان يمكنني أن أراه سواء مع المتظاهرين، الذين ذهبوا مع الحشود من أجل مستقبلهم ولم يأخذوا أي مخاطر كبيرة، أو مع الحرس القديم المخلص للديكتاتور المخلوع، الذين دافعوا عن الإمبراطورية حتى آخر طلقة .

Twitter: @ketab_n

ساد نوع من الفوضى في البلاد، وارتفعت أعمدة الدخان الأسود من اتجاه طريق (آي 79) السريع كعلقات تمصّ السماء، كأبراج بابل المنقلبة رأسًا على عقب. عيد الميلاد آت وتمنيت أن يكون مشمسًا، فكرت في كل هذه الأشياء بينما كنت أحمل صينية خشبية عليها إبريق من الشاي الساخن وكوبين رخيصين إلى الغرفة، فمررت بالأبواب في طريقي إلى بابنا، أنصت لأرى ما إذا كان هناك أي ضجيج أو حديث مترابط، فكرت أن مستعمرة الجذام هادئة للغاية منذ عدة أيام، فركلت فاتحًا أحد الأبواب الخشبية المتهالكة. كانت نافذة الغرفة مفتوحة وضرب وجهي جدار من البرد وعدة رقائق من الثلج. كنت أعرف أنني لن أجد أي شخص، كما أعرف أنه ليس هناك أي شخص في الغرفة المجاورة، ولا في التي تليها، ولا في المبنى كله. جميعهم قد غادروا في تلك الليلة الهادئة، يرافقهم نباح مكتوم.

وكان "روبرت" قد سألني ما الذي كان يحدث، فأجبته إنها الكلاب فحسب، لكن البقسماط كان قد اختفى من المطبخ في اليوم التالي، وغطت الثلوج مساراتهم أثناء الليل، لذا كان من المستحيل معرفة الطريق الذي سلكوه، مع ذلك تجولت حول السياج باحثًا عن علامة. خرج "روبرت" متتبعًا خطواتي، ظننت أنه يريد قول شيء تعليقًا على النزوح، لكنه جذبني من كوعي فحسب قائلًا:

نحتاج مزيدًا من الخشب، لأن البرد لا يطاق.

Twitter: @ketab_n

في ذلك اليوم تحول سعاله إلى دويّ بغيض.

أولًا وصل العمال ظهرًا، نظفوا ساحة المصنع وحرقوا جميع النفايات من الثورة، وبعد ذلك بقليل كان النصف العلوي من وجه "تشاوشيسكو" ينظر بخبث إلى أسفل الجدار، وبعد استراحة تناول الغداء والفودكا تم تبييض البقية.

الآن يبدو المشهد مختلفًا تمامًا، بعد أن كنت تنظر إلى رأس سوداء كبيرة في الأفق لسنوات وسنوات، حتى أصبحت جزءًا لا يتجزأ من صورتك اليومية عن العالم، لا سيما إذا كانت تكشر بغباء على هذا العالم من نفس المكان يوميًا.

سقط "روبرت" نائمًا، مما سمح لي ببعض السلام والهدوء، شاهدت حشدًا مجتمعًا من الأشخاص المرتبكين بالتغييرات المفاجئة، توقفوا بالقرب من جدار أبيض مثقوب بطلقات الرصاص كأنهم يتساءلون: رأس من التي ستُرسم بجوارها، فكرت أن هذا سيكون مكانًا مثاليًّا لصلب منمق يعلوه قوس قزح، لكنني لم أكن قادرًا على التفكير في كل تلك الألوان الجميلة مرة واحدة.

وصلت ليموزين سوداء غالية لاحقًا في ذلك اليوم، مدير ما بعد الثورة الجديدة، برفقة اثنين من ضباط الشرطة وفتشوا المبنى بأكمله، ودعا

Twitter: @ketab_n

العمال معًا في عنبر التخزين، بعد نصف ساعة خرج الجميع يتساءلون بعنف، أظن أنهم كانوا يناقشون بنشوة الأجزاء الأكثر لفتًا لانتباههم في الخطاب الذي أقنعهم أن مستقبلًا أفضل قد وصل، وأنه لم يكن بعيدًا نوعًا ما لكنه كان هنا والآن.

وكان مستودع قمامة المصنع يُضاف إليه قطع كبيرة من الزجاج المكسور، وهو منتج نشوة الساعات الأولى من العهد الجديد، ودوّت مكبرات الصوت: "استيقظي يا رومانيا"، ولوح العاملون في أفرولاتهم الزرقاء بعلامة النصر كردّ على دخولهم المصنع، وسرعان ما بدأ البرج الحجري في نفث الدخان، ولوح المدير من السطح إلى العمال، سعل "روبرت" كما لو كان ذلك الدخان نفسه بالضبط يخنقه .

جلست على سريري، محاولًا خداع جوعي بمضغ قطع صغيرة ناعمة من لحاء الدردار من قاع الكأس. لم يكن هناك أي لهب في المدفأة، سوى كومة من الرماد البارد، رفعت حفنة منه وتركتها تقطر من بين أصابعي، الآلاف من الجزيئات الرمادية الصغيرة والثلوج التي صنعتهم يد الله، تغطي ألواح الأرضية، وتمطر على رأس "روبرت" النائمة، وعلى الكتاب المقدس وأطراف حذائي.

فكرت أن الرماد مادة مشؤومة، تهب بلطف محاولة طرد "روبرت"، ركعت على الأرضية، ضممت شفتي ونفخت بقوة، محاولًا دفع الكومة

Twitter: @ketab_n

بعيدًا، ولكن عندما نفخت الغبار تحت السرير، ظهرت أجزاء أوروبا من تلك الظلمة المنسية، طار ما تبقى من الخريطة مثل فراشات خائفة، أجزاء من بريطانيا، ولشبونة، وموسكو، وبراري وسط أسبانيا، والعديد من الجزر الكرواتية، والجبال المغطاة بالبياض، ومساحات خضراء وبحيرات لم أعرفها، وما زالت مكبرات صوت المصنع تصدح: "استيقظي يا رومانيا"، لكنني لم أكن قادرًا على العثور على قطعة الأرض التي يتغنون بها.

جمعت الورق المتبقي، مضيفا كتابين أو ثلاثة من كتب "روبرت" السنوية الإحصائية والمجلة الطبية القديمة، وأشعلت المدفأة، فاشتعلت بلهب أخضر من حبر الطباعة وتدريجيًا بثت أثرًا ضئيلًا من الحرارة. بعد تدفئة أضلعي، لففت نفسي بإحكام في بطانية محاولًا الحفاظ على تلك القشعريرة اللطيفة لأطول فترة ممكنة.

سرعان ما غطى الجليد النافذة مرة أخرى، وبدأت الملحمة الثورية في الارتداد، وحل محلها صياح النساء المبهج بالآلات الموسيقية الشعبية في الخلفية، تخيلت وجوهًا مشرقة تلفها مناديل مطرزة. عادة ما تكون النساء مثلهن لديهن شوارب، تلك الشعيرات البنية القليلة المثيرة للاشمئزاز بما يكفي لجعلك تنسى العيون المشرقة، والنهود الصلبة وخصلات الشعر المعطرة، فكرت في أن الجمال في عين الناظر بالتأكيد، وتركت جفناي ينسدلان .

Twitter: @ketab_n

من على بُعد، جاء دوي الشاحنة الثقيلة، مثل سعال حيوان عملاق، أو ربما كتدمير جدار برلين أو بعض المعاقل الأخرى، بدا الأمر كما لو أن اشتعال وقود الديزل العالي تحت نافذتنا مباشرةً، أو في مكان قريب جدًا منه. نهضت وكشطت الجليد الذي ثبت من الداخل أيضًا، تلألأت الأشكال الكريستالية المضاءة بالعيون الحزينة المرتعشة خارج البوابة. بقليل من الخيال يمكنني أن أتصور كلبًا آليًا كبيرًا يوجه الضربات النهائية إلى قلعة معاناتنا، يمزق فكّاه السياج المعدني كما لو كانت مصنوعة من العصي، وكفوفه المعدنية تهز الأرض. ترتجف جماجم "سيون إيمنسكو"، و"مستيسلو كاسويزك"، و"مارجريتا يوزيبوفيتش"، الجافة في قبورها محكومًا عليها بالنسيان، عظام مرضى جذام مجهولون في الحقول المجاورة تخشخش خوفًا.

فتحت النافذة، كان هناك ضجيج أقل مما كنت أظن، سنوات الصمت جعلت حاسة سمعي شديدة الحساسية، قرعت الشاحنة بوقها عدة مرات، ثم وضعت الدواسة على المعدن وتحركت إلى الأمام، انثنى السياج ببطء، أنَّت القضبان المعدنية على جانبي البوابة عندما دُفعت على الأرض، كانت هناك لحظة من التوتر الشديد وبدأ كل شيء ينكسر، ضغطت العجلات الكبيرة الحديد في الثلج، أيقظت "روبرت"، وهو أيقظ سعاله، سعى جاهدًا للوصول إلى النافذة وزمجر بصوت أعلى، وكانت رئتاه مضطربتين بسبب الهواء البارد المختلط بعادم الغازات.

Twitter: @ketab_n

توقفت الشاحنة بجانب النافورة، تآكلت أضواء المصنع البنفسجية في الشفق.

انغلق باب الشاحنة، وصمت المحرك، فقفز "مارتن" خارجًا في الثلج، وأحضر بندقية كلاشنيكوف وعلبة وقود معدنية من المقصورة، وتوقف تحت نافذتنا واضعًا الأشياء في الثلوج، نادى "مارتن" بتحية عسكرية:

أيها السادة، جوازات سفركم من فضلكم !

لم تستطع ساقا "روبرت" تحمل الإثارة، جلس بجوار المدفأة، ممسكًا ركبتيه ومحدقًا في بقعة على الأرض. رددت تحية "مارتن" وركضت إلى الطابق السفلي، بدلًا من السترة الجلدية الأنيقة كان يرتدي زي الشرطة الأزرق العادي والعديد من النجوم الذهبية على طية صدر السترة. بدا أنه قد انحاز لأحد الجانبين، ذهبت كي أحضنه، لكنه تراجع وأوقفني بيده المرتدية قفازًا من المطاط، فقلتُ:

عذرا، قلت لقد نسيت .

دعاني مارتن إلى الجزء الخلفي من الشاحنة، ورفع المشمع وأخرج كيسًا كبيرًا عليه شعار الخدمة البريدية. أخذت الثاني، كانا منتفخين وناعمين، أخذناهما ووضعناهما على الطاولة في غرفة الطعام، طلب مني إحضار "روبرت" ثم أشعل سيجارة.

Twitter: @ketab_n

كنت قد بدأت أشعر بالفعل بذلك الحنين الغبي، وأظن أنها مؤامرة التعود، فعندما أُطلق سراح الإمبراطور الصيني الأخير من قيود الطقوس التي تحملها حتى مرحلة المراهقة، كقوانين سلالته المحددة. طالب بعودتها بانتظام لأنها أصبحت جزءًا طبيعيًّا من رؤيته للعالم، ومن جسمه .

وتقول الأسطورة إنه كان يتنزه في الساحات الواسعة من المدينة المحرمة مستمتعًا بصلصلة سلاسله الثقيلة كما لو كانت تغريد عندليب أسود. شعرت بشيء مماثل، ورغم كل سعادتي أنني سأغادر المكان أخيرًا، وذهابي كي أحضر "روبرت"، جرت يدي برفق على جدران البيت اللعين المتسخة. الأكثر غرابة: عيناي المليئتان بالدموع، والفراشات التي بدأت ترفرف في معدتي، تلك الفراشات مألوفة جدًّا.

يقف "روبرت" الآن في منتصف الغرفة، عندما رآني مسح دموعه في أكمامه وابتسم، عانقنا بعضنا بعضًا، وبذراعي الذي لا يزال ملتفًّا حوله، تمكنت من رفعه، وحمله إلى الخارج، إلا أنه عاد لإلقاء نظرة على الغرفة للمرة الأخيرة، فأخذ الكتاب المقدس، وأغلق النافذة، قائلًا:

حتى لا تكون باردة جدًّا إذا عدنا.

Twitter: @ketab_n

أخذت جواز سفري من الدرج، وعدة أشياء صغيرة أخرى، وهدية عيد ميلادي، ثم أخذت "روبرت" من ذراعه وأطفأت النور، وقفنا في الممرّ، ونظرنا في الظلام إلى غرفتنا. وبينما كنت أغلق الباب، فكرت في لو أنني كنت سآخذ تذكارًا يلخص كل ما مررت به، وفكرت فيه في هذه الغرفة على مدى كل تلك السنوات الطويلة، فسيكون شريحة من ذلك الظلام السميك الرطب.

كان لدي شعور أن شيئًا ما قد انتهى وشيئًا آخر قد بدأ الآن، المصابيح الكهربائية المشحمة على طول الممر محاولة أمريكية تودعنا، وتشيعنا بوميض ناتج عن اختلاف الجهد، لم أكن أجرؤ على التجول خوفًا من أن يكون هناك أكثر من قسم في الطابق الأرضي الرثّ في الهواء شديد الرطوبة والضوء الأصفر، ربما رأيت وجوه النزلاء السابقين، مشوهة بالمعاناة والمرض، أو حتى الأرواح المفقودة من المجذومين الميتين. كان "روبرت" يترنح بسبب السعال، لذلك أسرعت من خطوتي فضلًا عن مساعدته.

كان "مارتن" يفرغ أكياسًا على الطاولة، سيجارة مشتعلة في زاوية فمه اليسرى، ويحدق بعينين نصف مغمضتين لتجنب الدخان، كان من الصعب تخيل حجم الكومة الضخمة التي يمكن أن تنتج من خمسة أكياس بريدية، رغم ضعف حاستي الشُّمِّيَّة فإنني اكتشفت نفحة طيبة من العطر، اقتربت وأخذت نفسًا عميقًا كي أملأ رئتي مع بالرائحة الزكية، كومة من الملابس موضوعة على الطاولة: بدلات، وقمصان

Twitter: @ketab_n

وصديريات حريرية إيطالية غالية، كانت أكمام الزي المحفوفة بجديلة من الذهب بارزة، ورجل البنطلون المعلقة على الحافة تظهر بطانتها المخملية الحمراء، أخبرنا "مارتن" أن نأخذ ما نريده .

قطن ناعم مريح للبشرة، والسراويل الثقيلة من الصوف ثلاثي الطبقات جعلني أشعر بالدفء على الفور، ارتدى "روبرت" بحماس زوجًا من قطن الدنيم ماركة "ليفي شتراوس"، وأطلق بعض الشتائم الأمريكية المقذعة، كما ألقيت له كنزة برقبة طويلة ماركة "بولو"، ارتداها فوق البيجامة، وعليها الأحرف الأولى الأنيقة.

كان "مارتن" يشاهدنا بطرف عينه وينظر إلى ساعته من حين لآخر، بعد أن ارتدينا أكبر قدر ممكن من الملابس، بما فيهم زوجان أو ثلاثة من الجوارب لكل منا، ثم أخذنا مقاسات بعضنا بعضًا لقياس التأثير، برزت رأسانا من الألوان الجميلة والمنسوجات الفخمة مثل امتدادات غير طبيعية وملتوية. فتش "مارتن" حولنا، وأخيرًا وجد قبعتين صوفيتين دافئتين ارتديناهما وأنزلناهما على جبهتينا حتى أعيننا تقريبًا، ثم طلب رؤية جوازات سفرنا، كان جواز سفر "روبرت" لا يزال في تجويف داخل الجدار، لذا ذهبت كي أستعيده، ألقيت بالحجر في الثلوج وارتعدت خوفًا عندما سمعت النباح من وراء السياج، ثم مددت يدي وأخذت الكتيب الأخضر، ولم

Twitter: @ketab_n

أُعد قالب الطوب إلى مكانه مرة أخرى، وتساءلت إذا ما كنت سأفكر لاحقًا في مستعمرة الجذام كمريض مصاب متروك ينزف حتى الموت.

مرة أخرى استقبلتني في غرفة الطعام رائحة بنزين حادة، كان "مارتن" يتجول بالعلبة، وسكب بعض الوقود على الملابس على الطاولة وكذلك على الكراسي الخشبية وتجهيزات المطبخ، وعندما فرغت العلبة ألقاها على الأرض، سلمته جواز السفر، الذي يضعه حاليًا في جيب سترتة العسكرية، جلس وأشعل سيجارة، وأطفأ الكبريت بعناية بين أصابعه، ثم أشار إلى أنه ينبغي علينا الخروج، سحب الأنفاس القليلة الأخيرة من سيجارته ثم تبعنا، وقفنا أمام الباب الرئيسي، منتظرين لحظة أن يصبح المبنى كله شعلة قوية تلتهم الظلام، سوف تشتعل النيران في الأرضيات والعوارض الخشبية بسرعة، وسرعان ما سينتشر الحريق إلى السندرة والسطح، والأثاث القديم والمراتب والوسائد المحشوة بالصوف.

وضع مارتن عقب السيجارة بين سبابته وإبهامه، ثم حملق فينا بابتسامة كما لو كان يريد دعمنا في ما كان يوشك على القيام به.

نقر بطرف إصبعه، فسقطت النقطة الحمراء المتوهجة على ألواح الأرضية، كان هناك لهب، في البداية أخضر، ثم تغير إلى اللون البرتقالي، الذي تسلق ساق الطاولة، وابتلع أكمام الزي، وانتشر انتشارًا لا رجعة فيه، فانسحبنا نحو الشاحنة.

Twitter: @ketab_n

كانت الحرارة تشع بالفعل في الخارج على الثلوج، تعطلت الصفائح وطقطق صراخ الخشب، ذهب "مارتن" إلى الباب الذي كانت تلعقه ألسنة النار الطويلة، ألقى شيئًا بين فكي النار، وقبل أن أتمكن حتى من الصراخ أدركت أنها لم تكن طيورًا أو أي شيء آخر، بل جوازات سفرنا، التي اشتعلت فيها النيران مثل ريشتين وأصبحتا جزءًا من الجحيم، صرخ "روبرت:"

يا يسوع المسيح .

التقطت الكلاشينكوف من الثلوج، وحررت مزلاج الأمان وصوبت نحو "مارتن" الذي رفع يديه ببطء، لو كنت قتلته، فسيكون ذلك بسبب الغضب المكبوت من التعرض لكل إذلال المرض الرهيب، ارتعدت إصبعي على الزناد، منتظرًا إشارة للضغط. فكرت في "كيسويزك" المدفون، كما أصبحت أعرف الآن، بسبب رزمة من الورق لا قيمة لها. استغرق الأمر مني عشرين ثانية لتفريغ الخزنة بأكملها، أطلقت على الحريق عبر نوافذ الطابق الأرضي، حطمت عدة نوافذ في الطابق الأول، فضلًا عن غرفتنا، ثم بدأت قطع ثقيلة من البلاط بالسقوط من السقف .

قال "مارتن":

كنت أحمق.

Twitter: @ketab_n

وانتزع الكلاشنيكوف من يدي، ثم قفز إلى المقصورة، وأدار المحرك، وأشار لنا بالركوب في الخلف، أطلق سبابًا بالرومانية بسبب خطوه على البنزين، واستدار ثلاث أو أربع دورات محاولًا الوصول إلى البوابة.

رويدًا رويدًا صرَّت الإطارات وغرقت في الثلوج، نعم، كانت جوازات السفر المحترقة رزمة من الورق لا قيمة لها، وأختام وتوقيعات الجهات الأمنية السابقة التي أصدرتها باطلة حاليًّا، لو كان "مارتن" قال هذا في حينه لما أطلقت النار، ولما ضربنا رؤوسنا في القضبان، محاولين إلقاء النظرة الأخيرة على بيتنا القديم عبر فروع أشجار "البتولا"، الآن علينا الاختفاء قبل انتباه العمال إلى إطلاق النار، وخروجهم إلى ساحة المصنع وركضهم إلى مستعمرة الجذام بِدِلاءِ المياه.

بوصولنا إلى الطريق الرئيسي، كان الحريق قد دمر السقف بالفعل، وانهارت العوارض الخشبية، ولم يتبق سوى الجدران السميكة المضاءة بلون المشمش، اختفت الجمجمة الصارخة من آخر مستعمرة جذام أوروبية في حضن ميدوسا الناري، كنت سعيدًا إلى حد ما، وسوف أتذكرها هكذا: مخلوق عجوز بغيض مهيب في سقوطه.

Twitter: @ketab_n

الفصل العاشر

"استيقظي رومانيا، من سبات الموت. الذي أغرقك فيه الطغاة البربريون. الآن وإلا فلا، مصيرك يتجدد. وشاهدِي أعدائكِ وهم ينحنون أمامك".

كلما اتجهنا نحو دوريات من رجال الميليشيا الذين نصبوا أنفسهم وأظهر "مارتن" لهم وثائقه، مما يدفعهم إلى خفض بنادق صيدهم تعبيرًا عن الاحترام والتضامن الأخوي، دوى هذا اللحن من راديو الشاحنة، وبدا لي كما لو أن كل ما كان يحدث في البلاد نشأ من تلك الأغنية وحدها؛ لا بد أنها تحتوي على رموز سرية موجهة إلى مراكز المخ التي تتحكم في خلق الثورات، سوف تسلم الدورية "مارتن" زجاجة محلية الصنع من البراندي أو

Twitter: @ketab_n

الفودكا، سوف يأخذ جرعة كبيرة، ويؤشر بعلامة النصر، ثم يواصل القيادة، مدندنًا كي يوقظ الأمة الناعسة كما قلنا .

غادرنا الأسفلت إلى كتلة متشابكة من الطرق الفقيرة المفتوحة التي لديها نصيبها من الدوريات أيضًا. كانت المسارات الوعرة مسدودة في أماكن بالجذوع، وعادة ما تكون نقاط التفتيش مأهولة بالفلاحين ذوي اللون البني حتى رُكَبهم بفضل روث الأبقار: المزودين بالمناجل والدعائم الريفية الأخرى التي مُنحت دورًا في الثورة الأوروبية الماضية، سيصرخ "مارتن" كي يتوقف مثيرًا خليطًا موحلًا من الثلوج والطين على النساء المتطفلات والأطفال الناعسين المحتشدين حول النار، ومطلقًا بوق الشاحنة باستمرار، وممسكًا الكتيب الأحمر في مقابل الزجاج الأمامي للسيارة حتى رفع رجلان الجذع وجعلا الطريق سالكًا له.

خرج "مارتن" من الطريق إلى حقل ذرة كي يصبّ بعض الوقود، ورفع غطاءً من القماش المشمّع لفتحة ملء الوقود، ثم فتح الترباس المعدني ودعانا للخروج.

كان الغطاء الجليدي على الأرض رقيقًا وتركنا آثار أقدام سوداء أينما سلكنا، كان السهل مظلمًا وساكنًا، ووهج مصفرّ يضيء الغيوم على بعد إضاءة خافتة، وقال "مارتن" إن تلك أضواء "بوخارست". أنهى التزود

Twitter: @ketab_n

بالوقود وألقى العلبة، وأخبرنا أنه يرغب في تدخين سيجارة هنا في العراء، إذا لم نكن نشعر بالبرد الشديد، فقلت:

الجو ليس باردًا.

فاقترب مني "مارتن"، وعدل ياقتي التي برزت قائلًا:

القطن يبقيك لطيفًا ودافئًا .

تحسس الخامة وظهر عليه إعجابه الواضح بجودتها، فقال:

إنه لا يرتدي إلا الأفضل.

سألته:

من؟

اتسعت عيناه كي تستحضر الرعب المصاحب لذلك الاسم، قائلًا:

دراكولا .

أعرف أنه لا يعني "فلاد" المخوزق لكن اللقب الشائع لديكتاتورهم، نظرت عن كثب إلى صدر "روبرت"، وطويت رقبة الكنزة إلى أسفل محاولًا قراءة الأحرف الأولى المطرزة على بيجامته: حرف "ن" منمق

Twitter: @ketab_n

يحتضن حرف "ت"، فأدركت أن ملابسنا الدافئة الجديدة جاءت من خزانة نيكولاي تشاوشيسكو .

ضحك "مارتن" عندما رفعت ذراعي وتشممت تحت إبطي، كانت هناك رائحة عرق جميلة، وذلك العرق يعني التاريخ، وفعل "روبرت" الشيء نفسه، ولكن كان أنفه غير قادر على كشف أي عيوب تاريخية.

واصلنا طريقنا، ونحن نشم رائحة الملابس من وقت لآخر، تحركنا صعودًا ونزولًا على طول طريق مفروش بالحصى، متجنبين الحفر المتلئة بالثلج الذائب. عندما أراد روبرت بصق قطعة من رئتيه المريضة، طرقتُ على زجاج المقصورة فأبطأ "مارتن" سرعته، ثم انحنى "روبرت" إلى الخلف وأعطى رومانيا ما تستحقه. وتوقفنا مرة أخرى قبل الفجر: في الأفق خط أصفر طويل من ضوء قريب كان يقسم الظلام. بين الفروع سمعنا هديرًا بطيئًا مثل تدحرج موجة عملاقة، صوت الدانوب مختبئًا خلف غابة كثيفة من الصفصاف، فكرة تحدي تلك القوة والسفر ضد التيار عبر قلب القارة روعتني بقدر إدراك أننا في الواقع نسافر دون هدف، ونحمل رغبة غير محددة في التغيير والحركة والمعنى. لوهلة كنت مستعدًا للعودة إلى أنقاض مستعمرة الجذام المحترقة، وإعادة الحجر الناقص في الجدار، وإحياء حياتي البائسة هناك.

Twitter: @ketab_n

خدشت الفروع يداي ووجهي، وفتحت الجروح شبه الملتئمة، كنت أخشى ألا يتمكن "روبرت" من فعل ذلك. وضعت ذراعي حول كتفيه، كان يرتجف، سيطرت عليه الحمى ثانيةً، وغرقت قدماه في الوحل أعمق من أي وقت مضى، بجهد رفع حذاءه وتخلص من كتل سميكة من الأرض الحمراء، ثم وصلنا أخيرًا إلى هدفنا. كان سطح الماء هائجًا وستار من ضباب الصباح يحلق فوقه، كانت الضفة البعيدة لا تزال غير مرئية، لذا بدونا كما لو كنا نقف على حافة دوامة ضخمة. بعناية، مشى "مارتن" إلى الزورق الخشبي المتوقف، جال ببصره في النهر باحثًا عن شرطة الحدود الرومانية، وعندما اطمأن إلى أن النهر مهجور، نادى علينا، وكان لا يزال يدخن وينظر في ساعته، ثم ألقى عقب سيجارته في الماء قائلًا:

سيكونون هنا في أي وقت.

جلسنا على الألواح الخشبية الرطبة، ونظرنا إلى النهر الذي جعلنا نشعر بالدوار، زجاجات كوكاكولا بلاستيكية أفرغت على أرصفة فيينا، وأسطوانات غاز صغيرة، ومصابيح كهربائية، وقطع من البوليسترين المائلة على طول مثل الأرواح الغرقى المعلقة في التيار، أكياس بلاستيكية ممزقة معلقة في فروع غارقة. وأشرق حصاد تكنوقراطي في ألوان عديدة، بينما أنا و"روبرت" نشاهد الفجر البطيء، أشعل "مارتن" نارًا على الضفة، قطع الأغصان الميتة، وجمع حزمًا من البوص وصنع منها

Twitter: @ketab_n

هرمًا على جذع شجرة، قطيع من الغربان جذبهم الدخان هبطوا في الغابة المجاورة.

ساعدت "روبرت" على النهوض، كانت يده متجمدة، واقتربنا لندفئ أنفسنا، فرك "مارتن" يديه، وقفز مبتهجًا. كانت واحدة من تلك اللحظات التي يشبه فيها الواقع التسجيل التالف الذي يتخطى التسلسل نفسه ويكرره بلا نهاية.

حولت الإبرة وسألته عما حدث للمجموعة التي غادرت مستعمرة الجذام سابقًا، فأجاب بجملة لاتينية يقولها الكاهن في العصور الوسطى عند طرد المجذوم:

مُت في العالم لكن عش ثانيةً عند الله.

ظل يقفز، قائلًا:

تاهوا غربًا، البرد أهلكهم، أما الذين نجوا فوصلوا إلى خط السكة الحديد القديم الذي يؤدي إلى منجم الفحم في السفوح، وهناك وجدوا منزلًا مهجورًا بالقرب من المسار، الجمقى، سوف يموتون جوعًا، البلد في فوضى، وكل ثورة، للأسف، تفصل ما بين الغث والسمين، أخشى أنه لا أمل لهم.

Twitter: @ketab_n

رددت:

- مُت في العالم، لكن عش ثانيةً عند الله.

- ألن يكون هو نفسه معنا؟

كان "مارتن" صامتًا، وأضاف مزيدًا من الفروع الجافة على النار دون ردّ، ما الذي يمكنه قوله على أي حال؟ رسم "روبرت" علامة الصليب على نفسه محدقًا في اللهب.

على عكس العصر الحالي، كان طرد المجذومين في الماضي غنيًّا بالطقوس على الأقل، كان المجذوم المعزول يؤخذ إلى الكنيسة، ويوضع مثل جثة على محفة خشبية، ويُغطى بشرشف أسود، ثم يرنم الكاهن" "حرّرني"، ويرد عليه الحضور "من الكتلة السوداء" ثم يُنفى الشخص سيء الحظ إلى مستعمرة الجذام، وإن لم توجد مثل هذه المؤسسة، فسوف يُبنى كوخ بأربع دعامات من خشب السنط الأسود على بُعد عشرين قدمًا من الطريق، وينجو المجذوم بفضل الصدقات التي يلقيها المسافرون طيبو القلب إلى الكوخ، عندما يتوفى المجذوم، يُحرق الكوخ بالجثة، وفي صيغة مختلفة، يُحمل المجذوم من بيت الله إلى القبر، كتوضيح رمزي عن استبعاده من عالم الأصحاء، ويُنزلون المجذوم إلى قبر محفور حديثًا، ثم يضع الكاهن كومة من التراب على رأس المجذوم ويقول :

Twitter: @ketab_n

- صديقي، هذا علامة على أنك كنت ميتًا في العالم، لكنك تعيش عند الله.

ثم يؤخذ المجذوم بعيدًا إلى مستعمرة الجذام على نقالة بسنانير حديد، ويموت المجذوم موتًا بطيئًا، منتظرًا الدعوة إلى المكان الذي لا يوجد فيه مرض، حيث الجميع نظيف وأبيض دون رائحة كريهة أو وصمة عار - أكثر إشعاعًا من الشمس .

حلقت الطيور دون سابق إنذار، تاركة عدة ريشات رمادية في الهواء تندفع إلى أسفل حتى الثلوج. بسرعة يجرف "مارتن" كومتين من التربة الرطبة معًا ويلقيهما على النار. انسحبنا إلى الشجيرات، بينما جذب بندقيته الكلاشنيكوف وركع بالقرب من المهبط. سمعنا صراخًا بأسئلة على متن البارجة، وإجابات ميكانيكي مكتومة. أشار "مارتن" إلينا كي نظل هادئين، تهادى ماشيًا إلى الشجيرات القريبة ووضع بندقيته بين فروعها المتشعبة.

لم أكن أعرف ما اللغة التي يتحدثون بها، خفف الضباب من الأصوات، رغم أن درجة الأصوات التي سمعناها كلها كانت صدى قطنيًا، فإن أول ما رأيناه كان علمًا سوفيتيًا كبيرًا مرسومًا تحت مقدمة البارجة، ثم ظهر بعده هيكل البارجة الأسود وعليه بحروف حمراء "لينينجراد".

نهض "مارتن" تدريجيًا، خفض بندقيته، ونفذ إلى المهبط وصرخ بكلمة السر التي تبدو كأنها اسم طبق روسي ما لزج، وكان الجواب من

Twitter: @ketab_n

على سطح البارجة بنفس النبرة، كان هذا قاربنا إذن - بارجة مسطحة طويلة ترتفع مترين أو ثلاثة أمتار خارج الماء، وعندما كانت قريبة جدًّا، رأيت شخصين أسودين يفكان الحبال من مقدمة البارجة، لوح أحدهما بذراعه، وبدأ ثعبان طويل مشبع بالماء في التلوي على ألواح القاعدة. أمسك دليلنا نهاية الحبل وثبته إلى الرصيف، وأمكن سماع تحول العجلة المسننة الثقيلة. هبط الممشى الحديد بنفسه من سطح البارجة على لوحات مثل ذراع عملاق منقرض. أخلّ التصادم بتوازن "مارتن" تقريبًا، لكنه أمسك الحبل السميك في الوقت المناسب تمامًا، وقفز على درجات الممشى التي أدت مباشرة إلى الهيكل القارب الأسود والعلم. قدماه المرتعشتان تختبران كل خطوة، جاءت دعوة تشجيع عبر الضباب قائلة :

كل شيء مصنوع من الصلب ...الصلب الروسي.

التقيا في منتصف الطريق: مصافحة رسمية ومحادثة قصيرة، وأشار الربان إلى البارجة، و"مارتن" تجاهنا، بدأ "روبرت" في السعال كما لو كان يريد لفت الانتباه إلى وجودنا. دس السيد "سموز" يده في جيبه، خلع الروسي قلنسوته البيريه، ووضع تحت ذراعه مستقبلًا حزمة الأوراق النقدية، ثم لعق أطراف أصابعه، وعد المال مرتين، ثم أعاد القلنسوة إلى رأسه الأصلع، وعاد مرة أخرى إلى سطح البارجة.

Twitter: @ketab_n

نظر السيد "سموز" إلى اليسار ثم إلى اليمين باتجاه تيار الماء، ثم عاد إلى أسفل حتى المهبط الخشبي، ودعانا للحضور، فشعرت بعرق بارد على رقبتي، وحدق "روبرت" في خطوط الدخان الرقيقة المتصاعدة من النار المنطفأة، فسألته:

هل نذهب؟

لكنه كان لا يزال يحدق في جمر الصفصاف المتوهج.

وبسبب انتشار التربة الرطبة، عبأت حفنة من الطين لإخماد النار تمامًا، حينئذ فقط حاول "روبرت" الوقوف، ممسكًا الجذع العطن، بينما لوح الروسي بعصبية محاولًا استعجالنا، لكن كان "روبرت" ينظر مشدوهًا بعيون واسعة إلى السماء والأشجار العالية التي تسنده. لم يكن تردده بسبب متاعبه الجسدية، أو شعوره بالحمى أو بالألم في الرئتين، بل كان "روبرت دنكان" يحارب ضد موجة تفكير قوية عاتية في ما أصبحت عليه حياته. تأوه، وانهمك في نفس الأفكار المروعة التي تصيب المنتحرين، أوالمحكوم عليهم بالإعدام أو النساء اللائي أجهضن للتوّ. يعكس بياض عينيه تألقًا لؤلؤيًا من مشهد الشتاء، كان يحدق في كل مكان، رافضًا أن يطرف، كما لو كانت ستائر جفونه الضئيلة، وحركة العضلات الصغيرة للغاية في زاوية عينيه، ستدمران ليس فقط العالم الحالي، بل السابق واللاحق أيضًا. ثم اضطر "روبرت" إلى أن يطرف عدة

Twitter: @ketab_n

مرات، في تتابع سريع، فأمسكته بحزم من ساعِدِه وسحبته بعيدًا، أردت انتزاعه بعيدا عن اضطرابه العقلي الحادّ، فحدق في ثم في البارجة.

خبطت الفروع العائمة مقدمة البارجة ثم غرقت في دوامات النهر عالي المنسوب، فقلت:

هيا، دعنا نذهب.

لوح الروسي بذراعيه بعصبية، حاول "مارتن" تهدئته ببعض الكلمات الخافتة، عندما أمسك "روبرت" بكتفي أخيرًا، وبدأ في تحريك قدميه، صمت "مارتن" والروسي، وتحرك كل منهما إلى الجانب المقابل من الممشى. خلع "مارتن" قبعته ومسح العرق عن جبينه، ثم وضع القبعة تحت ذراعه، وأخرج القفازات المطاطية من جيبه الداخلي ووضعها في يده اليمنى. وقفت معتدلًا قدر استطاعتي ورتبت ملابسي بسرعة لتناسب مزاج اللحظة الجادّ.

أدار الميكانيكي المحرك، وانتشرت الاهتزازات إلى الممشى، مما جعل الحصى وكتل الطين على الحافة تنزلق مرتعشة إلى النهر، عاد الروسي وخلع قلنسوته البيريه بطريقة مسرحية كما لو كنا زوجًا ملكيًّا مخلوعًا يهرب سرًّا من البلاد بعد الثورة. صافحت قفاز "مارتن"، وصافح يدي متململًا بسبب وقفته، ثم نظر إلى عيني قائلًا :

Twitter: @ketab_n

انج بنفسك .

حاولت الابتسام، ساعتها فقط سعل "روبرت". تراجع "مارتن" إلى الوراء بضعة خطوات، سعل محرك البارجة وهمهم بصوت أعلى. اهتزت يد "روبرت" واعتصرت أسلاك السور الصدئة، وقال الروسي :

هيا يا شباب، أمامنا رحلة طويلة.

ثم صفق بيديه وركض حتى المشى، وصاح مداعبًا بسعادة حزمة الأوراق النقدية في جيبه الداخلي :

بعيدًا نذهب !

لم أجد كلمات أودعه بها، رفعت يدي اليمنى بشكل غريزي وألقيت التحية العسكرية، واقفًا انتباه، وفعل "مارتن" الشيء نفسه، وأظن أنني رأيت دمعتين تتلألأن في ركن عينيه، قائلًا:

اذهبوا غربًا، حظًا سعيدًا.

شعرت كما لو أنني لم أسمع أحدًا يقول ذلك منذ فترة طويلة.

Twitter: @ketab_n

رُفع المشى بضوضاء ونش ثقيل، كما سرت قشعريرة ضعيفة في العملاق المعدني، وعوى المحرك، بينما كان هناك رذاذ ناعم من الماء البارد، ثم بدأت البارجة في الحركة، والمشهد في الاهتزاز.

كنا نقف على سطح البارجة المغطى بلطخات من قشور لامعة، واختلطت رائحة السمك برائحة النفط الروسي الثقيلة. انحنى "روبرت" أكثر، وتكمم، ومن فمه تدفق نهر مخضرّ من طعام نصف مهضوم، وبعد إفراغ معدته مسح فمه في كمه، وتنهد بعمق، ثم جمع بقايا المادّة الحمضية وبصقها نحو الشاطئ، وبينما اختفى "مارتن" بين الشجيرات، اختفى الروسي أسفل سطح البارجة. كان هو والميكانيكي - كما اتضح - يعدّان سكننا. في الواقع سَماها حفرة، وهي حالتها التي كانت عليها، كنا سنستمتع بالراحة فيها طوال الطريق إلى حافة أوروبا الغربية، إلى منطقة ميناء "فيينا" المهجور، قلب الظلام، حيث سوف تنكسر تلويحات المجذومين الآملة مقابل جدار العالم المختلف العملاق. وقال الروسي، مدخلا إصبعه في تجويف مسدس "زبرويوفكا" الكبير تحت حزامه:

في خدمتكم، كل شيء جاهز، من هذا الطريق من فضلك.

كان هناك درج حلزوني ملتفّ إلى أسفل في الظلام تحت مؤخرة السفينة، بعد ارتفاع درجة حرارته والقيء، كان روبرت قادرًا بالكاد على تحريك قدميه إلى أسفل في دوامة ثلاثية، وتحسسنا طريقنا إلى أسفل باستخدام

Twitter: @ketab_n

الأرضية والجدار الصلب، في أحد الجوانب كانت هناك كوتان مستديرتان صغيرتان في قطر كوب الشاي تقريبًا، ثقبان سيظهران لنا صورًا ضبابية من ضفة النهر، وزوارق دوريات من مختلف الجيوش، وصورًا ظلية من المدن. الأكثر روعة وجمالًا والأبعد أننا سافرنا إلى الغرب. انغلق الباب الحديد بصرير، وأخيرًا باصطدام دوى في سطح البارجة السفلي بأكمله.

كنت أفكر وأنا أساعد "روبرت" على الهبوط على على بطانية مشحمة ملطخة بالبترول إن ما يحدث هو أول لقطة من الفيلم الذي لا يعرف قصته أحد، على الأقل نحن الاثنين، أسند ظهره على الجدار المعدني الذي يفصلنا عن غرفة المحرك، التي ضمنت لنا مصدر دفء ينقذنا من التجمد في الأيام الأربعة المقبلة، كما ضمنت لنا أيضًا ضوضاء مزعجة تمنعنا من النوم.

وأعاق أنين المكابس أي شكل من أشكال التواصل، بينما منذ أمد غير بعيد كانت الكلمات الناعمة ترنّ بوضوح في غرف مستعمرة الجذام الباردة عالية السقف .

كانت قراءة الكلمات من شفاه "روبرت" المشوهة بالجذام مستحيلة، كان قادرًا على تحريك يديه بالكاد، سيحدق في الكوة الصغيرة، منتظرًا أخذ لمحة من المدينة بعيني اليمنى السليمة وأن أكتب على الجدار المعدني بإصبع مغموس في بركة صغيرة من الزيت أسماء المدن: "ماجليريه"، و"كالافات"،

Twitter: @ketab_n

و"بلجراد"، ثم "فوكوفارسكو"، و"موهاج"، و"دونفولدا"، و"بودابست"، ولاحقًا "إسترجوم"، و"كومارنو"، و"براتيسلافا"، وأخيرًا "فيينا"!

كتب إصبعي بخط كبير، وتابعت عيني العلامات الخضراء التي تحمل أسماء المدن على نهر الدانوب الذي ارتفعت أضواؤه على الحشائش ومستودعات الميناء المتداعية جميعها بيضاء بفضل الصقيع.

كانت الثغرة الصغيرة في الجزء السفلي من بابنا تنفتح مرة يوميًّا، وتنغرس عبرها يد روسية مغضنة تستعيد الوعاء الفارغ وتعيده ممتلئًا بخليط لزج فيه قطع سمك نصف مطهوة أضعها جانبًا من أجل "روبرت"، وأكدس عظامها في الزاوية، فتنمو الكومة الصغيرة، وتشكل هرمًا من الأعمدة الفقرية والأضلاع، كنُصْب تذكاري عابر لموتات تافهة، ورمز هشّ لوجودنا هنا ورحلتنا في القلب، "قلب الظلام"، قلتها بصوت عال، ولكن أنين المحرك أسكت صوتي.

فكرت في جحافل القبائل السلافية البربرية تطوف على الضفاف، وتصلصل بسلاحها، تخيلت أن هكذا كان ذات مرة، وهكذا سيكون ثانيةً.

في عام 1487، اتخذ مولانا فيكتوريوس فرديناند، ملك أراجون، إيزابيلا ملكة قشتالة زوجا له، واتحدت مملكتا "البرانس" العظيمتان تحت تاج دموي واحد أخيرًا.

Twitter: @ketab_n

هزت الاحتفالات - التي تقول الأساطير إنها استمرت ثلاثة وسبعون يومًا - مآذن المساجد المغاربية، من مئذنته لم ير المؤذن شوارع آمنة، بل جحافل من النساء والأطفال الصغار مرعوبين؛ بعثرت حوافر الخيول الماضي حيث توجه الفرسان العرب إلى المعركة النهائية، الفرسان الذين سرعان ما ستتدحرج رؤوسهم على أرصفة "إيربيه"، و"سرقسطة" و"بامبلونا"، عالم انقلب، وانسحقت حدائقه العبقة، وانخسفت كلمات محمد إلى التراب، وظلت النوافير جافة بعد أن تبللت بدم الشباب .

عرف فرديناند وإيزابيلا الجميلة أن سقوط العدو الأكبر سوف يصبّ في مصلحة الأعداء الصغار وأن العديد من حكماء المملكة الموحدة يريدون أن يصبحوا سلاطين بدلًا من السلطان. أُشبعت نزوات المقاتلين المؤكدين بالمعارك الذين انقضوا على السيوف العربية المعقوفة بالأزياء الباذخة من التاج الجديد والألقاب الجديدة من المستشار الملكي، كما أُرضيت الطبقة الأرستقراطية المتغطرسة بالولائم المنتظمة، وحفلات الشراب، والعذراوات لفض بكارتهن في غرف محمية في البلاط الملكي، حيث تختلط صرخات الشهوة مع عويل الألم في أقبية القصر الرطبة التي كانت تُنتزع فيها كل الأسرار المغاربية، وكل الكنوز المغاربية يُكشف عنها النقاب.

وكانت الجدران تُعد بسلاسل، وتُجهز الزنازين بالأجهزة الشريرة من الآليات الماكرة، لكن تكمن أكثر الغرف سرية في أدنى مستوى من الجناح

Twitter: @ketab_n

الجنوبي من سراديب الموتى، المفروشة بترف يليق بالغرف الملكية، من الستائر الثمينة، والأثاث المزخرف من خشب الورد والتمثال المذهَّب لمريم العذراء، والسَّجَّاد من الصوف الأسود، والأكواب الكريستالية، والشمعدانات الفضية التي تنتظر ضيفها، وتثير فضول الحراس وحاشية البلاط .

كان عواء ليالي نوفمبر المطيرة مع رياح الجبال الجليدية غطاء جيدًا لمركبة تجرّها خيول الحرس الملكي، وسرعان ما ابتلعت القلعة الموكب غير العادي، وتأكد الحراس من أن البوابة أُغلقت بلا صوت تقريبًا. وصل الضيف بصحبة عروسه، وترددت الشائعات. محميون بدروع أكثر ضباط الملكة ولاءً، استغل الزوجان إقامتهما في مساكن معطرة في القبو، تضيئه شعلة واحدة فقط. لعدة أيام لم تتمكن أية عيون فضولية من التمعن فيما وراء الصدور العضلية للحراس المدججين بالأسلحة، وبسبب اقتراب الاحتفال بالذكرى السنوية لاتحاد المملكتين، فإن الضيفين الغامضين حظيا بفضول أقل فأقل. وفي النهاية تم نسيانهما تمامًا. ربما باستثناء أثر خافت من الرضا الخبيث على الشفتين الرطبتين للملكة عند عودتها من إحدى الزيارات الليلية إلى غرف الطابق السفلي الرطبة.

كانت الاحتفالات كما تليق بأسرة حاكمة قوية شابة – يتدفق فيها أفضل أنواع النبيذ الصقلي في الأنهار، وتحفل المائدة بكل أساليب اللعب الغريبة، وتصرخ الجماهير فرحة تحت الجدران أثناء انهمار طيور الدرّاج المشوية

Twitter: @ketab_n

وأفخاذ صغار الماعز المطهوة في الحليب عليهم. ينال الجميع رضا متساويًا، ويتركون القلعة ببطون ممتلئة ونفوس معززة، ويهضمون الشرف الملكي الممنوح لهم الذي سوف يذكرونه لاحقًا في حكاياتهم لأطفالهم وأحفادهم وخدمهم، ولكن لن يحكيَ الجميع تلك الحكايات .

فقط قلة مختارة، تصطفيهم الملكة ينالون شرف حضور مأدبتها في أعلى برج، ويجري تقديمهم شخصيًا إلى مبعوثين من بلاد بعيدة يصافحون الجميع بدورهم، وفي إحدى المرات أعلن الزوجان زورًا أن الأمير "يوجين" الأصغر، لورد "أولتينيا"، وزوجته "كونستانتا"، لا يفضلان الابتسام في وجه الضيوف الآخرين، وأخفيا وجوهيهما بأقنعة من عرق اللؤلؤ لا يظهر منها إلا عيونهما.

قبلَ الانحناء والمصافحة، خلع الزوجان - على عكس العادة - قفازاتهما الحريرية، وفسر الضيفان هذا كدليل على الاهتمام الخاص، وفعلا الشيء نفسه، هو الذي كانت يداه خشنة قاسية من السيف والصولجان؛ ومجروحة بالسيوف العربية، عاش حياة طويلة وسعيدة، يقشر البرتقال في حدائق "أراجون" الفاخرة، بينما الآخر الذي احتفظت يداه بنعومتها وقشرت البرتقال بينما كان الفرسان الشجعان والخيول الأصيلة ينزفون أمام اعتداءات المغاربة، توفي متألمًا في وحل مستشفى الجذام، مطرودًا من عائلته ومجتمعه .

Twitter: @ketab_n

سرعان ما علمت المملكة كلها بعدالة "إيزابيلا" القاسية وانتقامها الشنيع من الأرستقراطيين المتعجرفين، وكانوا راضين عن النتائج، كما أسست الملكة في بلاطها لقب كونت الجذام براتب مائة فلورين.

توقف محرك زنزانتنا المظلمة أخيرًا، كنا ننزلق عبر الماء بصمت الآن، في انتظار الارتطام بالرصيف الأسمنتي. فتح "روبرت" عينيه مدهوشًا بالصمت، تخيلت أن علينا الخروج إلى الحفلة ومصافحة كل أوروبا، نبتسم ونمدّ لهم يدنا المجذومة. هذا ما يستحقونه، نمسد بحنان خدود أطفال "فيينا" السمينة، ونبصق في كل كوب، نعانق كل شجرة ونترك خراءنا المريض في كل مرحاض، هذا ما يستحقونه، فكرت، محدقًا في ضوء المدينة الكبيرة المصفر .

اهتز جسم البارجة، سريعًا مرت أشباح القوارب على "الدانوب الأزرق"، واختفت في ظلام الشرق الزيتي، رسونا بجانب حطام سفينة شحن كبيرة. حاولت أن أجعل قلبي ينبض أسرع، وراحتاي تبدأ في التعرق، وصوتي يتهدج، لكن لم يحدث أيّ من ذلك، لم يكن هناك أي أثر من الإثارة.

نهض "روبرت" ببطء وذهب إلى الكوة، وقال:

كنت دائمًا أريد رؤية "فيينا".

رددت:

Twitter: @ketab_n

- لم أكن أعرف ذلك.

- آه، نعم.

قلت محاولًا التخفيف من مزاج "روبرت":

دعنا نذهب إلى المدينة، يمكننا الذهاب إلى مستشفى جيد في وسط المدينة، سنشرب قهوة ساخنة، وسيفتنون بدراسة مرضنا، أراهن أنه لم يكن لديهم مرضى مثلنا منذ مائتي سنة .

عندما دقت القبضة الروسية على الباب ثم فتحته ودعتنا إلى الخروج، وامتدت أصابعه النحيلة كي تنتزعنا خارج الظلام، وتدفعنا للخروج إلى الظلام في الخارج ونترك أمان مخزن البارجة، ساعتها بدأ قلبي في الدق، عازفًا إيقاع الخوف.

خرج "روبرت" أولًا، وبعد بضعة نداءات غاضبة تبعته.

وقف الروسي في مقدمة البارجة ممسكًا بعصًا خشبية طويلة ينوي استخدامها للحفاظ على مسافة آمنة بين عالمي المرضى والأصحاء. بمجرد أن بدأنا، أشار بالعصا في اتجاهنا، قائلًا:

حسنًا وببطء الآن يا أصدقائي، لا حاجة للعجلة.

Twitter: @ketab_n

تلك العبارة الثانية إطناب لا بأس به، ضحكت واهتزت أطراف شفتي، وسعل "روبرت" مستثارًا بالهواء البارد، أعطى الداهية الواقف على مقدمة البارجة إشارة واستدارت ثانيةً، والآن أبطأ فأبطأ. وسمعت صرير كل عجلة مسننة من الممشى الحديدي الذي هبط نحو الأرض النمساوية ثم استقر في بركة الزيتية، فقلت في نفسي الأمير "يوجين" الأصغر لورد "أولتينيا"، وزوجته "كونستانتا"، متسليًا بالمقارنة. نغزتنا عصا البارجة في ظهرنا، وليس لدينا أي قوة على التمرد أو الكشف عن أسناننا العفنة. مشينا ببطء، خائفين من الانزلاق والوقوع في الماء. عندما وصلنا إلى نهاية المطاف، لكزتنا عصا البارجة بقوة فجأة وطرنا نحو بركة سوداء على الرصيف. هل سقطت ببطء، ربما كنت قادرًا على رؤية انعكاس فيها، من السماء المرصعة بالنجوم، أو طائرة تطير إلى "سيدني"، أو حتى نجم الدب الكبير.

ألقى الروسي العصا في الماء وبحركة بطيئة من يده جعل بناء الصلب يتحرك أسرع، تخيلتها تتحرك لأعلى فأعلى إلى السموات.

لإنهاء الانطباع، انحنى الروسي، وخلع قلنسوته البيريه وأومأ مثل لاعبي السيرك، كما فعل سابقًا منذ عدة أيام عندما أخذنا على متن البارجة، لوحت لنا يد الميكانيكي من مقصورة الربان، واستنتج "روبرت" أنه يجب أن يرد التلويح، فحرك يده ببطء، محاولًا الاستدلال على اتجاه الذي رحلت فيه البارجة. أشرت إلى اليسار، وإلى الشرق، لكنه

Twitter: @ketab_n

طرف بعينه وتعرف على وجهي بصعوبة، كان نبضه ضعيفًا، وجبهته باردة، لكنه وجد القوة كي يقف معتدلًا، ويأخذ بضع خطوات على الأرض الأجنبية، وقال إنه يمكنه المشي بنفسه، فأكدت على كلامه:

نعم، بالطبع يمكنك!

أدركت أنها مسألة كبرياء، وأن "روبرت" سوف يعرج بعناد ورائي، فقلت :

لا تزال أمامنا العديد من الخطوات يا صديقي.

أمامنا يقع ظلام "فيينا وودز" ذو الألف عام، نفس "فيينا وودز" الذي رعى فيه في عام 1529 الجِمال العربية أحادية وثنائية السنم جيدة التغذية، والحدادون العثمانيون، جيدو التغذية أيضًا، الذين يشحذون بتفانٍ الآلاف من سيوف "اليطقان" المحدبة، ويسنّونها من أجل رقاب الكفار. كان ضجيج هذا التجليخ مثل صراخ الأطفال، كما تقول الأسطورة، وهناك حكايات لشابات "هابسبورج" المعطرات، الخائفات بهستيريا، الساعيات إلى الخلاص في رحلة من أسوار المدينة.

من أعماق "فيينا وودز" صدر الآن طنين جبار: طريق "لاندستراسي" السريع، حيث تنتهي أوروبا وتبدأ آسيا على طريقه.

Twitter: @ketab_n

يعتبر الأمير "فون مترنيخ" هذا الخط المظلم من الحصى، الذي غُطي بالقار الآن كي يصبح أسفلتًا، حدًّا بين عالمين. سأعبر أنا و"روبرت" ذلك الحد ونواصل بمحاذاة جانب الطريق إلى المدينة المجيدة.

أصبح صرير الإطارات وأزيز شاحنات ديزل "فولكسفاجن" أعلى فأعلى عندما مررنا بالأشجار البالغة من العمر مائة عام، قلت:

نحن في الطريق الصحيح .

ولكن روبرت جلس كي يأخذ قسطًا من الراحة، فقلت له:

انهض، لا مجال للاستسلام الآن يا أحمق.

رغم أنني في تلك اللحظة لم أكن أعرف ما الذي سيستسلم له صديقي إذا ما انتظر حتى الصباح على جذع الشجرة تلك .

أومأ بذهول محاولًا الضحك، ونهض ثانيةً قائلًا:

لا مجال للاستسلام.

وضعنا أيدينا على أعيننا، وتابعنا حركة المصابيح الأمامية المتوهجة أثناء انحرافها بعيدًا أمامنا مثل مذنبات مشئومة على منحنى

Twitter: @ketab_n

"لاندستراسي" الكبير. فعلها "روبرت" هناك أولًا، حقل مضغوط جيدًا يفصلنا عن حافة الأسفلت.

لاحظت أن "روبرت" كان يسير بغرابة، كمن استسلم لاحتضان الموت والخوض في وابل من الرصاص، كان يتحرك بسرعة لا تصدق، بالنسبة لحالته، وربما كان يشعر بآلام مبرحة، بمهارة تفادى الحجارة، وناور مثل أرنب يطارده ثعلب على عقبيه، بدا مصممًا للغاية على نيته الوصول إلى الطريق.

توقفت وشاهدت، وارتبكت، حتى أدركت ما الذي ينتويه "روبرت"، وتذكرت "زولتان"، فجأة خلع "روبرت" طبقة من الملابس وبدأ في الجري، تمايلت المصابيح الأمامية بجنون صعودًا وهبوطًا، صانعة منحنيات من الضوء المصفرّ. حاولت ألا يغيب "روبرت" عن ناظري، وأغمضت عيني اليسرى التالفة التي لم تكن تفعل شيئًا إلا جعل المشهد أكثر ضبابية.

تباطأ "روبرت" إلى أن توقف فجأة على بعد عدة خطوات من حافة الطريق، ركضت بسرعة أكبر محاولًا الوصول إليه، ثم بدأت في الصراخ باسمه. خلع "روبرت" قبعته، ووضعها على الأرض النمساوية، ثم مسح العرق عن جبهته، ورفع ذراعيه ملوحًا: وداعًا، فتوقفت أيضًا، جعلته أضواء السيارات التي تسير من خلفه صورة ظلية مظلمة، ثقبًا أسود في عالم

Twitter: @ketab_n

مصغر غامض من المناظر الطبيعية؛ أكثر شبهًا بغياب شخص عن وجود "روبرت" المصنوع من لحم ودم.

كان هناك صمت وجيز، التقت فيه أفكارنا في المركز الهندسي لما يعتقد الناس أنها مصائرهم المقدرة سلفًا منذ الأزل، ثم استمرت سيمفونية رعب ليلة ديسمبر بقضاء وقدر واضح، من العبث مقاومته، وقفت راسخًا في مكان الحادث، لاهثًا وممتلئًا بحزن لا نهاية له.

"*أليجرو مولتو ماركاتو*": استدار "روبرت دنكان" ببطء لمواجهة نهر السيارات، تاركًا ذراعيه تسقط بجانبه.

"*أداجيو*" : نظر إلى الأرض، واستدار إلى اليسار واليمين، وإلى الشرق والغرب، ثم سقطت عيناه على الأرض ثانيةً.

"*أليجرو مولتو ماركاتو*" : خطوته الأولى غير مستقرة، أفكاره تدور، محاولة تحرير نفسها من قيود رغبة نهائية، شيطانية قوية مثل الريح الشمالية من منطقة "الكاريبات"، لا مورت دي اسي: عندما خطا خطوته الثانية على سطح "لاندستراسي" الخشن، أطلقت السيارات نفيرها بشكل هستيري، ولكن الخطوة الثالثة حولت تلك الأصوات إلى انفجار شاقّ وصرير فرامل، وإلى رحلة للجسم المترهل المتحرر من العذاب والألم إلى أرض على سواد الطريق السريع .

Twitter: @ketab_n

أصبح العالم ساكنًا، وغُطيت الأرض بسبب وفاة رجل واحد.

لم يكن لدي أي مشكلة في انفجار الحشد الذي تجمع حول الجثة، إنهم منتشرون، وغير قادرين على استيعاب رعب الصدمة القاتلة وفي نفس الوقت رعب ظهور وجهي المجذوم الذي أعرضه للمرة الأولى بشيء من الفخر، وغالبًا حب الذات، فقلت دون تفكير:

نحن مرضى جذام ... أنتم ... خنازير!

فاتسع قطر الدائرة، وركعت بجانب "روبرت"، متناسيًا عشرات العيون المحدقة، ولم أتحرك حتى عندما سمعت صفارات سيارات الإسعاف أو بكاء الأطفال في المقاعد الخلفية، مهزوزين من النوم عندما فرملت السيارات بشدة، ولا ذرفت أي دموع، ولا حتى داعبت طبلة أذني أوتار الجيتار الرائعة المنبعثة من إحدى المركبات، وصوت مخملي يغني: "أنا عابر سبيل غريب فقير. أسافر عبر هذا العالم من الويل. لكن ليس هناك مرض، أو كدح أو خطر. في تلك الأرض المشرقة التي سأذهب إليها".

ثم، ألم تستمر؟

كنت محقًّا، سرعان ما زُجّ بكوب من القهوة الساخنة من فتحة باب المستشفى المغلق، أخذت الكوب وحطمته. وبينما انسالت القهوة أسفل الجدار كونت عدة أشكال؛ تعرفت منها على ثلاثة أنواع من الحيوانات، لا

Twitter: @ketab_n

أتذكرها، كان الشهر التالي مشحونًا بالأطباء النمساويين في بدلهم النمساوية الواقية، والإبر المصنوعة من الصلب، وحبوب بجميع ألوان قوس قزح، قيل لي إن أيًّا من سائقي السيارات أو رجال الشرطة أو المسعفين، الذين جرّوني إلى سيارة الإسعاف المرسيدس أُصيب بِعَصَوية "هانسن"، يا للحظ!

بعد تشريح جثته؛ دفنوا "روبرت" تحت الأرض النمساوية بعمق عشرة أقدام، في مقبرة في الضواحي اكتشفتها، أخبروني أنه يمكن ترحيل عظامه إلى الولايات المتحدة خلال ثلاثة أعوام إذا اهتم أي شخص بذلك، لا بد أن تظل كل هذه المدة لتبديد أي شك بشأن نشاط البكتيريا العصوية الخبيثة، كنت أعرف ذلك بالفعل، لكنني لم أستطع تخيل أنني سأقضي بقية حياتي أستيقظ على صوت البحر الأدرياتيكي، وصفارات السفن البعيدة التي تحييني، وحارس المنارة الوفي.

الحرمان الكنسي الإنساني، كما يسمونه، أو الموتَ السلميَّ كما يسمونه في وطني الأم؛ يعني الكثير من الوقت للتفكير، وجبن ماعز وصبار يزهر من أجل مجذوم واحد فقط، يعني وقت كي أخذ إجازة من الحياة مع الذكريات المتبقية من أيامي التي قضيتها في آخر مستعمرة جذام في أوروبا.

أحاول ألا أفكر كثيرًا، أكلت اليوم تينًا جافًا يُلقيه الصيادون الكرماء من الجزر المجاورة على الرصيف الحجري الصغير من وقت لآخر. هناك

Twitter: @ketab_n

تصاعد طفيف في البحر، يتم ضبط فترات الإضاءة، وتشق السفن طريقها إلى موانئ العالم.

تقول توقعات الطقس إنه لن يكون هناك ضباب الليلة، ما زلت أنظر إلى البحر، بعدما أزال الجراحون النمساويين غشاوة المياه البيضاء من على عيني في عملية روتينية، لكن ظل بصري مشوبًا جزئيًّا، عندما أحدق في السقف في الليالي العاصفة، مصابًا بالأرق، تشع البقعة الصفراء وميضًا طفيفًا على حواف نظري، ويندفع بؤبؤ عيني لتلبية الوهم البصري لكنه بإصرار يتجنب أن يُرى، ويتبع تحركات مقلة عيني.

هذا الشيء بعيد المنال يحلق باستمرار في زاوية الغرفة، وعلى خط الأفق، وبالقرب من أضواء الصيادين التي تزيل الماضي إلى شرق الصخرة. أحيانًا يبدو لي مثل اليدين أو القدمين، يمكنني مداعبة معالم رأسه، وملامح وجهة، ولون ملابس. هذا لا يزعجني، لكن يخيفني، لأنني أدرك أن مخيلتي تصنع قزمًا بالتدريج، وأنها ليست سوى مسألة وقت قبل أن يصبح على قيد الحياة، وساعتها سوف يكون له حركاته الخاصة، وقدرته على الكلام، وسوف تكون يداه ضعيفة من المرض، لكن صوته قد يكون أجشّ، وربما يكون هو نفس المخلوق المجذوم الذي سمعه "روبرت" عندما كان محبوسًا في غرفة 42، لذا صنعت ضمادة

Twitter: @ketab_n

سوداء لتغطية عيني المجنونة، لا أخلعها إلا عند النوم، وعندما تزعج أشعة الشمس الأولى النوارس، فقط كي أتأكد من أنني لم أجنّ أيضًا.

المشي لمسافات طويلة يساعد أيضًا، أسقي الزهور البرية التي تنمو تحت النافذة، ثم أخرج لتمشيط الشاطئ، هناك دائمًا آثار حطام سفن، كم يمكن أن تكون الأشياء الصغيرة جزءًا من المآسي الكبرى أيضًا، مثل موت سرطان بحر جففته الشمس ببطء، أو أخطبوط ممزق اللوامس، أو عوّامة لم تستطع الوصول إلى الجزيرة التالية.

أنقب في الرمال بعصا وأكتب اسمي بين ما يلقيه البحر.أنتظر أن تقوم الموجات بعملها ثم أعاود المشي على الشاطئ[1].

"جيرهارد هنريك أرمور هانسن" (1841-1912) عالم نرويجي، عزل البكتريا العصوية المتسببة في الإصابة بمرض الجذام في عام 1873، ولذلك فغالبًا ما يسمى الجذام مرض "هانسن" والبكتريا العصوية المسببة له - عصوية "هانسن".

Twitter: @ketab_n

السيرة الذاتية للمؤلف

ولد الكاتب "أوجنين سباهيتش" في عام 1977 في "بودجوريتشا"، الجبل الأسود، وهو أحد الكتّاب المعروفين في جيل الشباب من كتاب "الجبل الأسود" التي ظهرت منذ انهيار يوغوسلافيا السابقة، ونشر "سباهيتش" مجموعتين من القصص القصيرة: (كل هذا) في عام 2001 و(بحث شتوي) في عام 2007، روايته (أبناء الجذام)، 2004 فازت بجائزة "ميسا سليموفيتش" في عام 2005 كأفضل رواية جديدة من كرواتيا وصربيا والجبل الأسود والبوسنة والهرسك، كما نالت عام 2011 جائزة مهرجان "أوفيد"، وهي جائزة للآداب المترجمة إلى اللغة الرومانية.

وصدرت رواية (أبناء الجذام) في طبعات سلوفينية ورومانية، ومجرية مقدونية حتى الآن إلى جَانب الطبعات الفرنسية، والإيطالية والإسبانية المقرر صدورها قريبًا.

كما تُرجمت قصص قصيرة لـ"سباهيتش" إلى التشيكية واليونانية والتركية والرومانية والبلغارية والنجليزية والألبانية والألمانية، كما ضُمت قصته القصيرة –رايموند لم يعد معنا – (كارفر مات) إلى (مختارات من أفضل الأعمال الأدبية الأوروبية) في عام 2011 التي نشرتها دار "دالكي أركيف برس" في الولايات المتحدة. ويقيم "سباهيتش" في بودجوريتشا.

Twitter: @ketab_n

#كتب_مختلفة #الجبل الاسود

إنها نهاية الثمانينات وأوروبا على وشك أن تتغير إلى الأبد، في ركن مهمل من رومانيا ينتظر رجلين مصيرهما حيث يبدأ واقعهما حرفيا في الانهيار، تسمح لنا هذة الرواية الفريدة من نوعها والمروعة كثيراً إلقاء نظرة على عالم لم نواجهه أبداً بالتأكيد من قبل، بلا خوف من قول الحقيقة، يأخذنا الكاتب "سباهيتش" في رحلة عبر الثورة التي ستغير ليس فقط من طريقتنا في رؤية هذا الفصل من التاريخ، ولكن أيضا تتحدى نظرتنا إلى الهوية الأوربية، فالرواية عن سقوط الشيوعية كما هي عن التباين المتواصل بين الغرب والشرق، ببساطة سوف تستحوذ عليكم رواية (المبعدون).

أوجنين سباهيتش

ولد في عام 1977 في "بودجوريتشا"، الجبل الأسود، وهو أحد الكتاب المعروفين في جيل الشباب من كتاب "الجبل الأسود" التي ظهرت منذ انهيار يوغوسلافيا السابقة، ونشر "سباهيتش" مجموعتين من القصص القصيرة: (كل هذا) في عام 2001 و(بحث شتوي) في عام 2007، روايته (المبعدون)، 2004 فازت بجائزة "ميسا سليموفيتش" في عام 2005 كأفضل رواية جديدة من كرواتيا وصربيا والجبل الأسود والبوسنة والهرسك، كما نالت عام 2011 جائزة مهرجان "أوفيد"، وهي جائزة للآداب المترجمة إلى اللغة الرومانية، وصدرت رواية (المبعدون) في طبعات سلوفينية ورومانية، ومجرية مقدونية حتى الآن إلى جانب الطبعات الفرنسية، والايطالية والاسبانية المقرر صدورها قريبا، كما تُرجمت قصص قصيرة لـ"سباهيتش" إلى التشيكية واليونانية والتركية والرومانية والبلغارية والإنجليزية والألبانية والألمانية، كما ضُمت قصته القصيرة -رايموند لم يعد معنا - (كارفر مات) إلى (مختارات من أفضل الأعمال الأدبية الأوروبية) في عام 2011 التي نشرتها دار "دالكي أركيف برس" في الولايات المتحدة، ويقيم "سباهيتش" في بودجوريتشا.

ISBN 978-977-319-209-9
9 789773 192099 >

تصميم الغلاف: محمد سيد

العربي للنشر والتوزيع
60 شارع القصر العيني 11451 - القاهرة
ت: 27954529 - 27921943 فاكس: 27947566
www.alarabipublishing.com.eg